روائع الأدب العالمي للناشئين

تأليف: جون بوكان / ترجمة: صبرى الفضل



مكتبة الأسرة 2002
مهرجان القراءة للجميع 2002

بيت القوة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

بيت القوة

بيت القوة

اسم العمل الفنى: بيت القوة

التقنية: أقلام ملونة على ورق

المقاس: ٢٥ × ٣٥ سم

محمود الهندى (١٩٤٣ -   )

فنان تشكيلى مصرى، ومصمم جرافيكى، تخصص فى صناعة الكتاب، وابتكر صيغة موازاة الأعمال الأدبية بالأعمال التشكيلية فى الكتب منذ عام ١٩٦٤، ثم أقام معارضه داخل متون الكتب، ويحاول الولوج إلى عالم رسوم الأطفال لدور النشر المختلفة، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المركز القومى للطفل، هيئة قصور الثقافة، مؤسسة دار الهلال.

بيت القوّة

تأليف: چون بوكان
ترجمة: صبرى الفضل
مراجعة: مختار السويفى

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العالمي للناشئين)

بيت القوة

تأليف: جون بوكان

ترجمة: صبري الفضل

مراجعة: مختار السويفي

الغلاف والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

الإخراج الفني والتنفيذ:

صبري عبد الواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصدراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً في المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر في العالم العربي أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافي أسماء رواد في مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص ها هي تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالي في مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعي بعد أن حققت في العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التي أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام في «مكتبة الأسرة».. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ سوزان مبارك..

د. سمير سرحان

هذه ترجمة لرواية:

The Power - Mouse
By: JOHN Buchan

مقدمة

ولد جون بوكان في اسكتلندا عام ١٨٧٥ . ونال تعليمه في جامعتي جلاسجو واكسفورد، حيث فاز بجائزة نيوديجات للشعر. وكانت حياته بعد ذلك مشحونة بالعمل. فبعد أن عمل كسكرتير خاص للورد ملنر في جنوب إفريقيا، عاد إلى إنجلترا وعمل باجتهاد في حقل نشر الكتب. وعمل ضابطا في الحرب العالمية الأولى، ومديرا للمخابرات من عام ١٩١٧ وفي عام ١٩٢٧ أصبح عضوا في البرلمان. وفي عام ١٩٣٥ أصبح لورد تويدسموير وذهب كحاكم عام لكندا. وكان كل هذا الوقت، يكتب أيضا. وأضفت معرفته بالتاريخ وعمله في الخدمة العامة الاحترام لأعماله الجادة عن حياة العظماء، مثل: أوليفر كرومويل ١٩٣٤، وسجل حياته الشخصية ١٩٤٠ (السنة التي توفي فيها) . واستمتع جمهور أكبر بقصصه عن التحريات السرية والمغامرات التي تشمل: درجات السلم التسع والثلاثون، العباءة الخضراء، مستر

سداند فاست، برج الصيد، الرهائن الثلاث، المرقص، بيت القوة، وغيرها.

كان لأصدقاء ليدن، بطل قصتنا هذه مغامرات عديدة في شتى أنحاء العالم. أما ليدن نفسه، المحامي الهادىء، فلم يسافر خارج بلده أبدا. لكنه هو أيضا كانت له لحظاته المثيرة. وهذا الكتاب يحكي كيف وجد نفسه في طريق مجرم كبير يعتبر عقله البارع هو بيت القوة المتحكم في عصابة من المجرمين الخطرين منتشرة في شتى أنحاء العالم.

• • •

كانت جماعة من الرجال تصطاد البط في اسكتلندا وبعد يوم طويل في الهواء المنعش، عادوا عند غروب الشمس للبيت ليأكلوا وجبة كبيرة، وبعدها يجلسون في حجرة التدخين يتجاذبون أطراف الحديث.

كان صاحب المنزل صيادا عظيما. وكانت بعض رءوس وجلود الحيوانات المتوحشة التي اصطادها في إفريقيا متناثرة في الحجرة. وجرى الحديث بصفة رئيسية عن الصيد. ومنها انتقلت إلى مغامرات غريبة في مختلف أرجاء المعمورة. فكان أحد الضيوف، على سبيل المثال، ممن تسلقوا جبلا مجهولا في غينيا

الجديدة، وآخر كان قد ضل طريقه قرب بحيرة تشاد فى إفريقيا.

كلهم فى الحقيقة، كان لديهم ما يقولونه، شيء مثير وممل. كلهم ما عدا ليثن، الذى كان فى ذلك الوقت محاميا شارعا فى عمل اسم للقصه. ولم يغادر خارج إنجلترا إلا ربما فى زيارة لفرنسا. لكنه كان يحب أن يسمع عن أطراف الدنيا.

قال ليثن:

- أنتم سعداء يا رفاق، لقد نلتم كل مباهج الحياة، بينما كان على أن أعمل طول الوقت منذ أيام الدراسة ومع ذلك، لعبت مرة الجزء الرئيسى فى عملية مثيرة بدون أن أغادر لندن. والجزء الهزلى فى الأمر كله أن الرجل الذى رحل للبحث عن مغامرة شاهد فقط جزءاً يسيراً من اللعبة، بينما أنا الذى كنت فى بلدى شاهدت العملية كلها وتحكمت فيها.

وعندئذ روى ليثن قصته.

فصـــل (١)

بدايــة المغامــرة

لقد بدأ كل شئ بعد ظهر أحد الأيام فى أوائل شهر مايو عندما خرجت من مجلس العموم مع صديقى تومى دبلورين. وكنت قد أصبحت عضواً فيه حديثاً، وحيث إننى كنت فى بدء انشغالى بالقانون فوجدت نفسى مشغولاً تماماً. كان تومى لايزال شاباً عندئذ، وفى ذلك اليوم كان سيىء المزاج جداً. وكان الطقس فى الخارج ربيعاً جميلاً، فالمتنزهات خضراء ومملئة بالزهور الزاهية، وكانت النسمة الطيلة تهب من النهر. وداخل المجلس، كانت المناقشات المملة تدور، وكان الفرق بينها وبين العالم الخارجى المبهج جلياً حتى لى، أنا المحامى المعتاد على العمل الدءوب.

تشمم تومي الهواء مثل الغزال، وقال:

- إن هذا يوشك أن ينتهي علي- بالي من أحمق لأنفق وقتي هنا. إنك تتنفس بالكاد داخل المجلس، إنه ليس إلا دكان كلام وحديث.

قلت:

- إنه أب البرلمانات.

فأجاب:

- حسن، أنا لست في السن التي تجعلني والدا بعد،، سأخرج لتغيير الهواء. أريد أن أفعل شيئاً بدلا من هذا الحديث غير المجدى، حديث، حديث.

ولم أراه ليوم أو يومين، ثم خابرني في الصباح بالتليفون وطلب مني أن أتناول معه العشاء. فذهبت وأنا أعلم جيدا ما سوف أجد. كان المفروض أن يغادرنا تومي اليوم التالي إلى وسط إفريقيا، أو شيء من هذا القبيل، يجعله بعيدا عن واجباته في البرلمان، إنه لم يكن صديقا مناسبا لشخص منكب على عمله مثلي، على الرغم من أنه يستطيع أن يعمل بدأب مثل أي شخص آخر إذا أراد. وكان دائماً إذا بدأ في فكرة جديدة لا يريح أحد بخصوصها.

وفى تلك الليلة، أذكر، كانت لديه مجموعة عجيبة من الضيوف. كان منهم وزيرا فى الحكومة، وكان تومى يزدريه فى الطن ويحبه سراً، وبحار؛ وضابط فى الجيش الهندى؛ وتشايمان وهو عضو فى حزب العمال؛ وشخصى الضعيف.

وبدا تومى في روح عالية، ونكات تشايمان جعلته يضحك طوال المساء، وكان الاثنان يقطنان متجاورين فى يوركشير، وكانا على المستوى الشخصي صديقين حميمين، رغم أنهما فى البرلمان يتبعان حزبين متعارضين.

وكان حديث تومى تقريبا عن المناصب غير المناسبة التى يجد الناس أنفسهم فيها فى الحياة المدنية. وقال لا أحد منا يقوم بنوع العمل الذى يجب علينا، فيما عدا ربما البحار والجندى. وقال لى: إننى يجب أن أكون جنرالا فى الجيش... ذلك لأنى كنت مغرما بقراءة كتب عن الحرب، وعن تشايمان، قال، يجب أن يكون قاطع أشجار فى غابات كندا:

- ستكون حطابا ممتازا ياتشايمان ، وانت تعرف أنك سياسى مسكين جدا.

وعندما سألوه عن نفسه، لم يقل الكثير، معترفا:

- لا أعتقد أننى أصلح لأى شىء، فيما عدا أن أحافظ على

يقظة أصدقائي. على أية حال، فأنا راحل عن لندن. أريد أن أمدد ساقاي وأحصل على بعض الهواء المنعش.

ولم يقل إلى أين كان ذاهبا، ولا أعتقد أن ضيوفه كانوا يأخذون حديثه بشكل جدّي. فلم يزعجوا أنفسهم بقول تحيات التوديع التي يقولها الواحد منا لشخص راحل في رحلة طويلة. لكن عندما غادر الآخرون، وجلسنا في غرفة التدخين الصغيرة الخلفية. أصبح وقوراً، وقال:

- لقد أخذت على عاتقي مهمة خاصة، وأريدك أن تعرف فلا أحد من عائلتي يعلم. وأحب أن أترك خلفي من يستطيع أن يقتفي أثري إذا اتجهت الأمور نحو المشاكل.

فأعددت نفسي لقضية غريبة. حيث كانت لي خبرة في أفعال تومي. لكني أعترف أني أندهشت عندما سألني إذا كنت أتذكر بت - هيرون.

أتذكر بت - هيرون جيدا. فلقد كان بجامعة اكسفورد معي أنا وتومي، لكنه ليس صديقا حميما لي على الرغم من أنه هو وتومي لم يفترقا خلال السنتين الأخيرتين تقريبا. كان له صيت كبير في البراعة في كل شيء ومع كل شخص ماعدا سلطات الجامعة، واعتاد أن يقضي إجازاته في عمل أمور مجنونة في

جبال الألب وبلاد البلقان، ويكتب عنها في الصحف. كان ثريا جدا.. وعائلته تعمل في القطن في ليفربول... ولما كان يتيم الأب، فكان يفعل ما يحلو له بنقوده. ولقد كوّن لنفسه اسما بعد تركه اكسفورد حيث قام برحلة مشهورة في أفغانستان، وكتب عنها كتابا مثيرا

ثم تزوّج من إحدى قريبات تومي الجميلات، التي تصادف أن تكون الفتاة الوحيدة التي وجدت طريقها إلى قلبه الحجرى، واستقر في لندن. ولم أذهب إلى منزلهما، وعلمت بعد ذلك أن القلة القليلة من أصدقائه ما كانوا يرونه إلاّ نادرا. وتوقفت سفرياته وكتاباته الصحفية فجأة. وافترضت أن ذلك بسبب ما تتطلبه الحياة المنزلية الناجحة. ويبدو أنى كنت مخطئا.

قال تومي:

- إن تشارلز بت - هيرون يسير نحو مشاكل فظيعة، ويلقى بنفسه تجاهها.

سألت أى نوع من المشاكل، فقال تومي أنه لا يدرى، وأضاف قائلا:

- تذكر تهوره والشخصية التى اعتاد أن يكونها، فهو دائما منغمسا في عمل أو رحلة غريبة. ومع ذلك، لقد أصبح مؤخرا

أكثر هدوءً واستقرارا، لكن طوال السنة الماضية أصبح غامضا وغريبا أكثر وأكثر.

ومن ضمن أموره الغريبة حقيقة أن بت - هيرون قد انجذب إلى العلوم بشغف عظيم.

فأقام مختبرا للتجارب العلمية خلف منزله، ويعمل هناك لمنتصف الليل. والأشخاص الذين أقابلهم عنده من الصيدليين والأتراك ، وكثيرا ما رأيت رجالا من روسيا لهم شعر طويل ولحى ضخام. وجميعهم فيهم السلوك الغامض الغريب، وتشاركني في طريقه ليكون مثلهم. وأصبح لا يعطيك جوابا صريحا أو ينظر مباشرة في وجهك. حتى زوجته ايليل ترى ذلك، وكثيرا ما تحدثت عنه.

فقلت أنني لا أرى أي ضرر في كل هذا.

فأجاب تومي بجدية:

- لكني أرى ذلك، على أي حال، لقد هرب صاحبنا

فبدأت أقول:

- ماذا تقول...

لكنه اسكتني بقوله:

- هرب بدون كلمة واحدة لأى شخص. لقد قال لا يذيل إنه سيكون بالبيت على الغداء أمس، ولم يأت على الإطلاق. وخادمه لا يعرف شيئا عنه، ولم يحزم له ملابسه أو أى شيء. لكنه وجد أن تشارلى قد دس بعض الأشياء فى حقيبة قديمة وخرج من الباب الخلفى. فانزعجت ايذيل جدا وبعثت فى طلبى، وقضيت ما بعد ظهر الأمس كله فى اقتناصه مثل ذئب يقتنص طعامه. واكتشفت أنه قد سحب مبلغاً كبيراً من البنك، ولكنى لم أجد أى إشارة تدل على المكان الذى ذهب إليه.

· وكنت على وشك اللجوء للشرطة هذا الصباح. عندما خابرنى خادمه، توملين، وقال إنه عثر على بطاقة فى أحد جيوب سيده، وعليها اسم يشبه كوناليفسكى، فخطر لى أن أذهب للسفارة الروسية لعلهم يعرفون شيئاً. حسن، وبدون تطويل عليك، وجدت شخصا بهذا الاسم بين الموظفين. فقابلته فقال إنه قد ذهب لمقابلة مستر بت - هيرون منذ يومين بخطاب من مسئول بالسفارة ولسوء الحظ فإن الرجل الذى كتب الخطاب قد غادر إلى نيويورك. لكن كوناليفسكى قال: إن الخطاب ما هو إلا وثيقة سفر تعطى للناس المشهورين أو الهامين للسماح لهم بالذهاب لأى مكان داخل روسيا. وقال كونا ليفسكى إنه يعتقد أن تشارلز كان ذاهبا إلى موسكو.

وانتظر نومي قليلا حتى أستوعب أخباره، ثم استمر قائلا:
حسن، وهذا ما يكفيني. فسأرحل غداً لمطاردته واقتناصه.

فسألت:

- لكن لماذا لا يذهب الإنسان إلى موسكو إذا كان يريد؟

فأجاب نومي:

إنك لا تفهم فأنت لا تعرض تشارلز كما أعرفه
لقد انضم لجماعة غريبة في الناس. ولا أحد لديه أية فكرة عما سيفعل بعد ذلك إنه شخص غريب، وعلى أية حال، يجب أن يتوقف عن ذلك. فأنا لن أدعه يخيف إيديل بهذا الشكل اللاشيء فسوف أعيده من موسكو، حتى لو اضطررت أن أدعي بأنه مجنون هارب. ولعله يبدو هكذا الآن إذا لم يكن قد أخذ ملابس معه.

لقد نسيت ما قلته، لكنه كان بعض النصح بتوخي الحذر ولم أفهم سبب ثورة نومي لم يكن بت. هيرون يهمني كثيرا، وفكرة دفاع نومي عن سعادة زوجته أطربتني واعتقدت أنه يخدع نفسه، وقلت:

- إنها فكرة أخرى من أفكاري المجنونة. إنه لم يتصرف كأي شخص عادي أبداً. وما هو الاشكال الذي سيكون؟

إنه غني .. سعيد .. لديه كل ما يريد. إنه ليس بشيء

إجرامي، أليس كذلك؟

- لا أعتقد أن هناك جريمة. فتشارلي ليس من ذلك النوع حتى لو كان غريب الأطوار بعض الشيء.

- إذن ما سبب هروبه؟ ومهما كان هذا السبب، فيبدو لي أن بت - هيرون سيجد له رفيقا في البلية.

وأوافق على أن تأخذ إجازة بل يجب لأنك أصبحت حاليا مصدر ازعاج لأصدقائك ولا تقوم بأي عمل في البرلمان لكن كن حذراً فروسيا ليست كأي دولة عادية في السفر.

وفي الصباح التالي جاء نورمي ليراني في مكتبي، كانت فكرة السفر تأتي لرأسه مثل الخمر. فكان في أفضل حالاته النفسية. ونسي غضبه إزاء الطريقة التي هرب بها بت هيرون، بل في الحقيقة كان ممتناً له للفرصة التي أعطاها له للسفر للخارج.

أذكر المشهد وكأنه بالأمس. كان صباح أحد أيام شهر مايو الحارة، وكانت الشمس التي تدخل عبر النافذة المتسخة تعكس أشعتها على الغبار الذي يعلو مكتبي. كنت مشغولا للغاية في ذلك الوقت، فكانت مائدتي مغطاة بالأوراق. فالتقط نورمي واحدة وبدأ يقرأها. وكانت عن بعض الخطط لإمدادات المياه الجديدة في أحد أحياء جنوب لندن. فألقى بها من يده وتطلع إلي مشفقا، وقال:

• إنسان مسكين! إنك تنفق أيامك في مثل هذا العمل بينما العالم مليء بالأشياء الممتعة والمسلية! الحياة تزأر من حولك ، لكنك لا تستطيع سماعها في مكتبك القديم الأغبر القذر. حتى الشمس تدخل عبر نوافذك بصعوبة إن تشارلز أحمق ولكنه أحكم منك على الأقل .. ألا تود أن تأتي معي؟

الأمر الغريب إني كنت أود فعلا ، أنكر المناسبة، كما قلت لأنها كانت من القلائل التي كان ينتابني فيها احساس بالسخط علي المهنة التي قد اخترتها .، وعندما خبت خطوات تومي على السلالم، أحسست فجأة ، وكأنني افتقد شيئا في الحياة . إنه شعور تعيس حتى عندما تعرف أن الشيء الذي تفتقده هو الحمق.

رحل تومي بقطار الساعة الحادية عشرة من محطة فيكتوريا ، وتوقف عملي لذلك اليوم. إذ شعرت بقلق غير عادي ولم يكن السبب هو مجرد ذهاب تومي فقط .

وظلت أفكاري تعود إلى بت - هيرون، ووجدت نفسي اهتم اهتماما غريبا بالقضية ... اهتماما لا أدري سببه ، لأني اكتشفت في قرارة نفسي الندم على ما تفوهت به لتومي عن عدم أهمية الموضوع واندابني شعور. أيضا ، بأني سأتورط في العملية أكثر مما كنت أريد، رغم عدم إدراكي لما يمكن أن يفعله محامي عادي لندني مع اثنين من المجانين الضالين في روسيا .

ولم يتركني هذا الشعور ، لذلك ذهبت لزيارة ايثيل بت -

هيرون. فوجدتها وحيدة قلقة وفى غاية التعاسة.

وسألتنى عيناها الحزينتان إلى أى مدى أعرف عن زوجها.

فأخبرتها إننى قد التقيت بتومى وعرفت لماذا سافر.

وأضفت أنها يمكن أن تعتمد على إذا كانت تريد أن تعمل أى شيء هنا في إنجلترا.

ولكنها لم تطلب شيئا، أو ربما لم تكن راغبة فى ذلك. وقالت إن تشارلز كثير النسيان عندما يكون مشغولا. ولعله فكر أنه قال لها عن رحلة روسيا، وأنه لابد سيكتب وهى تتوقع رسالة منه قريبا.

واستطعت أن أرى في عينيها، مع ذلك، أنها لم تكن تصدق ذلك. فإما أنها كانت تعرف شيئا أو تخشى شيئا. والحالة الأخيرة هى الأكثر احتمالا. وعندما لم أجد شيئا آخر لأقوله فى الموضوع، غادرتها مع إحساس بعدم ترحابها بى. وازداد يقينى بأن هناك مشاكل قائمة، لكن كنت وأين لم أكن أدرى. كان لتومى سببا فى سفره أكثر مما كنت أعتقد.

وقررت أن كل ما أستطيع فعله هو أن أكون يقظا.

• • •

فصــل (٢)

بداية سماعى عن مستر أندرو لوملى

وبعد ذلك بأسبوعين... وبالضبط فى الحادى والعشرين من مايو.. فعلت شيئا من النادر ما أفعله، وذهبت إلى جنوب لندن فى قضية قانونية. كانت حادثة سيارة أجرة عادية، ولما كانت شركة سيارات الأجرة قد استخدمتنى من قبل، فقبلت أخذ القضية من أجلهم، حيث إن محامى هذه المحكمة المختص مريض فى الفراش وكالمعتاد فى هذه الحوادث، قال كل جانب شيئا مختلفا. كانت سيارة أجرة تسير ببطء جهة اليسار(*) من الطريق فاصطدمت بها سيارة خاصة كانت قادمة من شارع جانبى بسرعة شديدة. فانقلبت سيارة الأجرة وأصيبت بتلفيات جسيمة

(*) لأن السيارات فى إنجلترا تسير يسار الطريق.

وأصيب سائقها. الأمر السيىء في القضية أن السيارة لم تقف لترى ما حدث، لكنها انطلقت في الحال. وتم استدعاء شرطة لندن، فوجدوا أن السيارة تخص شخص يدعي مستر جوليوس بافيا، تاجر متقاعد، يعيش في منزل كبير كالقصر قرب بلا كهيث(*). وفي وقت الحادث، كان الشخص الوحيد الجالس بجانب السائق هو مستر بافيا. وكانت شركة سيارات الأجرة تقيم دعوى ضد بافيا.

وكان رئيس الخدم، واسمه ترك، في المحكمة. كان رجلا طويلا، له وجه نحيل طويل جدا، وفكه، يبدو على نصفه العلوى أنه لا يتناسب مع نصفه السفلى. وقدم اعتذارات كثيرة. وقال إن سيده كان في الخارج. وأنه في صباح الحادث. وكان في الثامن من مايو، استلم أوامر من مستر بافيا بأن يأخذ رسالة إلى مسافر في قطار العبارة الساعة الحادية عشرة من محطة فيكتوريا. وكان مسرعا لتنفيذ ذلك عندما التقى بسيارة الأجرة، معتقداً أن السيارتين قد تلامستا فقط، ووافق على أن يدفع للشركة ما تأمر به المحكمة وكما قلت كانت قضية عادية، لكن ترك لم يكن رئيس خدم عادى. لم يكن يشبه رئيس خدم في مظهره على الاطلاق، لكنه يوحي برجل أعمال ناجح. كانت عيناه

(*) حي بجنوب شرق لندن.

الصغيرتان حانقتين وكانت توجد تجاعيد من القسوة حول فمه، مثل رجل اعتاد على حسم الأمور بشكل باتر. كانت قصته بسيطة تماما، وأجاب أسئلتي في الحال وبصراحة، أو هكذا كان يبدو. وكان القطار الذى سيلتقى فيه بالرجل فى الساعة الحادية عشرة من محطة فيكتوريا. هو نفس القطار الذى سافر فيه تومي. وكان اسم المسافر الذى قابله هو مستر رابت بلفيز. وكان سيده. مستر بافيا، في إيطاليا، لكنه كان سيعود لإنجلترا قريبا.

انتهت القضية. في عشرين دقيقة، لكنها لم تكن مثل غيرها بالنسبة لي لأني اتخذت موقفا عدائيا وكراهية شديدة غير منطقية إزاء رئيس الخدم الناعم هذا.

واستجوبته بوقاحة، لكنه أجاب بأدب واحترام ولدهشة القاضي فقدت أعصابي.

وكل الطريق للبيت كنت حانقا وخجلا من نفسي. ثم تذكرت أن الحادث قد وقع في نفس اليوم الذى غادر فيه تومي لندن، ولكني لم أستطع الربط بين الواقعتين.

وفى ذلك اليوم أنفقت بعض الوقت في البحث قدر استطاعتي عن بافيا. كان يعيش، بالفعل، في منزل كبير يدعى المقر الأبيض في بلاكهيث. ولم يكن له عنوان في لندن نفسها، لذا

كان من الواضح أنه لا يعمل. وجعلني ضيقي من الرجل فضوليا بالنسبة لسيده. كان الاسم غريبا، محتمل إيطاليا، محتمل برتغاليا. وتعجبت كيف كان يتعامل مع رئيس خدمه. إذا كان ترك خادمي لكنت لويت عنقه أو طردته في أقل من أسبوع.

هل لاحظ أحدكم، عندما يسمع اسما يثير اندهاشه يظل يأتي أمامه؟ ففي اليوم التالي لهذه القضية، طلب مني أن أعمل في قضية أخرى هامة، كانت أحدى نقاطها الرئيسية صحة ملكية بعض الأسهم في شركات مختلفة. كانت عملية معقدة، لا حاجة لأن أزعجكم بها، لكن كان على أن أتوغل في الموضوع بتفاصيله مع شركة سمسرة مشهورة. وقدموا لي دفاترهم وكانوا صرحاء تماما في شرح عملهم. ولم اندهش لأجد أن بت - هيرون كان أحد الأسماء الهامة والمقدرة في كشوفاتهم فبدرونه يمكنه، طبعا، أن يهتم بكل أنواع الأسهم.

لم تكن لدي رغبة حاليا في الاستفسار عن أمور بت - هيرون الخاصة، خصوصا ما يتعلق منها بالمال، لكن اسمه كان في أفكاري في ذلك الوقت، وبدا أنه كان يشتري عددا كبيراً من نوع معين من الأسهم. فسألت السماسرة إذا كان قد استمر على ذلك لمدة طويلة، فقيل لي أنه بدأ يفعل ذلك منذ ستة أشهر.

وقال أحد السماسرة.

- مستر بت - هيرون مرتبط ارتباطاً وثيقاً في معاملاته المالية مع أحد السادة العملاء في كشوفهم وهو مستر جوليوس بافيا. فكلاهما يشتري هذا النوع من الأسهم وفي لحظتها لم انتبه للاسم، لكن بعد العشاء في تلك الليلة بدأت أفكر في الصلة. لقد عثرت على اسم أحد أصدقاء تشارلز الغامضين الجدد.

لم يكن اكتشافا له أهمية كبيرة. فتاجر متقاعد لا يوحي بأي شيء متهور في المعاملات المالية. فمثل هؤلاء الرجال عادةً ما يكونون حريصين جدا. وبدأت أتساءل، مع ذلك، إذا كانت مشاكل تشارلز مرتبطة بالمال بشكل أو بآخر، ولا يمكنني أن أصدق أن ثروة بت - هيرون المهولة قد تأثرت بشكل خطير، أو أنه قد هرب مديونا، لكنه قد يكون اشترك في بعض الأعمال الشريفة التي تقلقه.

وبشكل أو بآخر لم أصدق أن مستر بافيا كان رجلا بريئا تماما. فرئيس خدمه جعلني مرتابا،، ومن الممكن أن يكون بافيا يبتز بت - هيرون، الذي رحل ليهرب منه لكن لماذا؟ لم يكن لدي أية فكرة بما قد فعله تشارلز، إذا كان أي شيء يسبب هذا الابتزاز، وكانت تخميناتي متهورة ولا يمكن الأخذ بها جديا.

ومع ذلك كان ما لدي ضئيلا لأبني عليه تخميناتي. كانت هناك صداقة تربط بين بافيا وبت ... هيرون... ولقد غادر

تومي للبحث عن بث ـ هيرون.. ورليس خدم بافيا كسر القانون للحاق بقطار تومي قبل مغادرته. واذكر ضحكي على نفسي بسبب شكوكي. وتفكيري فيما قد يقوله تومي لو استطاع أن يرى ما في رأسي.

ومع ذلك، خطر الموضوع في ذهلي، وزرت ثانية في ذلك الأسبوع مسز بت ـ هيرون. ولم يصلها آية كلمة من زوجها، مجرد سطر واحد من تومي، يعطي عنوانه في موسكو.

السيدة المسكينة، كانت العملية مؤلمة بالنسبة لها. فكان عليها أن تحتفظ بوجه باسم للعالم، مخترعة قصة ما لتفسير غياب زوجها، وكان القلق والخوف يملأن قلبها طول الوقت.

سألتها عن بافيا، لكن الاسم كان مجهولا بالنسبة لها. ولم تعرف أي شيء عن معاملات تشارلز في عمله، لكنها ذهبت، حسب طلبي، لبنوكه. وسمعت منها في اليوم التالي أن شئونه المالية على خير ما يرام. لذلك لم تكن مشكلة مالية هي التي جعلته يرحل.

وبعدها بأيام قليلة أصبحت حقيقة صغيرة معلومة لي، إذ جاءتني بعض أوراق خاصة بالقبض على جاسوس ألماني في بليموث. ومثل هذه القضايا لم تكن غير شائعة في ذلك الوقت،

لكن هذه كانت مختلفة نوعا ما بسبب المركز الاجتماعى للمتهم. فلقد كان أستاذا فى جامعة ألمانية مشهورة، رجلا ذا اخلاق ممتازة وعلم واسع وكان معروفا لدى اصحاب المراكز.

لقد نسيت التفاصيل، لكنها لا تهم، لأن الرجل اطلق سراحه وما همنى فى ذلك الوقت هو خطابات التوصية التى كان يحملها. واحد منها كان موجها لبث ـ هيرون، وعند القبض عليه وصلت برقية من رجل إنجليزى آخر يعرض تحمل كل نفقات الدفاع،، وكان هذا الرجل هو مستر اندرو لوملى، الذى وصف بأنه ثرى، غير متزوج، وعضو بالعديد من النوادى المعروفة، ولديه شقة فى لندن ومنزل فى الريف.

وحتى أسابيع قليلة ماضية، لم أكن أعرف شيئا عن دائرة بث ـ هيرون و، وها هنا ثلاثة معلومات تسقط على، مصادفة ،عندما تيقظ اهتمامى، وبدأت أنفعل وأغمس، لأن كل رجل يعتقد فى صميم قلبه أنه مخبر تحرّى بالمولد. وأخذت أبحث عن اصدقاء تشارلز غير المعروفين، وحاولت أن أثبت إذا كان هو يعرف الجاسوس والجاسوس يعرف مستر لوملى، فلعل بث ـ هيرون ولوملى يعرف كل منهما الآخر.

ولعدة أيام أخذت أسأل كل من أقابله إذا كان يعرف لوملى. ولم يوفقنى الحظ حتى يوم السبت عندما تناولت الغذاء بالنادى،

فتقابلت مع جنكلسون من كتاب الفن المعروفين.

نسيت إن كنتم تعرفون أم لا أنى كنت دائما مهتما بالفن واعتدت أن أجمع لوحات قديمة من أنواع معينة، ولكن فى ذلك الوقت كنت أوجه اهتماما خاصا بالخزف القديم، الذى قد جمعت منه بعض القطع الرائعة وليس كثير من الناس يهتمون بالموضوع وهذا ما جعلني سعيدا لمقابلة جنكلسون لأنه كان مستعدا للحديث عن ذلك لساعات.

وكان في ذلك اليوم منفعلاً جدا، واستحوذ على حديثه طول فترة الغداء مزاد مجموعة وندوارث الشهيرة والذى قد حضره فى الأسبوع السابق. ولقد إنجذب بشكل خاص لزوج جميل من التحف. لم ير مثله من قبل وكان جنكلسون غاضبا جداً أن الدولة لم تشتره ويبدو أنه اتصل بمتاحف مختلفة وسلطات عليا، ويعتقد أن المشترى قد يعيد بيعه إذا صادف عرضا طيبا. ولقد اشترى التحفتين وكيل جامع تحف معروف اسمه اندرو لوملى.

فسألت وكلى انتباه:

- ومن هو اندرولوملى؟

- واحد من هؤلاء الأثرياء الذين يغلقون على مجموعاتهم ولا يدعون أحدا من الجمهور يراها أبدا. واشك أن أفضل الأشياء فى

المزادات الأخيرة قد وجدت طريقها إليه، وذلك يعني أنه لن يراها أحد آخر.

ـ وهل تعرفه؟

فأجاب جنكنسون :

ـ لا. لكنه سمح لي بمشاهدة مجموعاته مرة أو مرتين من أجل الكتب التي كنت أكتبها. ولم أر الرجل نفسه، فهو دائما يشتري من خلال وكلاء. نفس الشيء الأحمق الذي يحدث دائما. سيملأ منزلا أو اثنين بكنوز لا تقدر بثمن. ثم يموت ، وسوف يباع بكل شيء وأجمل التحف تحمل إلى أمريكا، لماذا لا تشتريها إنجلترا؟ وما فائدة وجود المتحف البريطاني؟

ولقد حصل جنكنسون على إذن من وكيل لوملي بفحص التحف على أساس حث أحد المتاحف لشرائها.

فسأل:

ـ هل تحب أن تأتي؟

ولعدم انشغالي عندئذ وافقت وذهبنا بسيارة جنكسون التي كانت في انتظارنا عند باب النادي. ولم اسمع ما قاله السائق حيث إن المطر كان منهمرا. وقضينا في الطريق عشر دقائق وما

شابه قبل أن أكتشف أننا نعبر النهر وأننا كنا ذاهبين إلى جنوب لندن. لقد توقعت أن أجد الأشياء في محل الوكيل، لكن لسروري قيل لي أن لوملي قد حصل عليها في منزله.

قال جنكنسون:

- إنه يحتفظ بأشياء قليلة جدا في شقته غير كتبه، لكن لديه منزل في بلاكهيث مملوء بالكنوز القيمة فسألت في شك مفاجيء؟

- ما اسم المنزل؟

قال جنكنسون.

- الصقر الأبيض

قلت:

- لماذا؟ إن ذلك ملك رجل اسمه بافيا.

- أنا لا أفهم ذلك. فالأشياء التي به تخص لوملي.

أعرف ذلك لأني كنت هناك ثلاث مرات بإذن منه.

واندهش جنكنسون وظللت صامتا بقية الطريق.

ها هو مزيد من الاثبات لما كنت أفكر فيه. كان بافيا صديقا

لبت هيرون، ولوملي صديقا لبت - هيرون، فمن الجلي أن لوملي صديقا لبافيا، ولعله هو بافيا نفسه! على أية حال إذا عثرت على أي واحد منهما، فقد أعرف شيئاً عن ما يفعله تشارلز أخيراً. وتمنيت بكل إخلاص أن يكون المالك في البيت ذلك اليوم. لأني إلى الآن لم أجد أي أحد يستطيع أن يعرفني على جامع التحف ومناصر الجواسيس الغامض.

وصلنا إلى المقر الأبيض حوالي الثالثة والنصف. كان منزلا قديما محاطا بالحقول ذات يوم، ويبدو الآن غريبا عن المكان مع الشوارع المزدحمة من حوله حيث يقبع في حديقته المنعزلة. توقعت أن أرى صديقي توك. رئيس الخدم، لكن فتحت الباب سيدة.. من الواضح أنها مديرة المنزل، التي تفحصت بطاقة جنكلسون والأذن بالدخول بدقة شديدة. وسمحت لنا بالدخول وهي غير راغبة.

لقد قال رفيقي الحقيقة عندما قال إن المكان يعج بالروائع والكنوز. وكانت كل حجرة مزدحمة بالأثاث القديم وجميع أنواع التحف التي لا تقدر بثمن. كان جنكلسون يود أن يرى ما حوله لكن مديرة المنزل حركتنا إلى حجرة صغيرة سوداء حيث توجد أهداف زيارتنا. كانت التحف شبه مغلقة فقط، وفي لحظة انشغل جنكلسون بها وانكب عليها بعدسته المكبرة.

وقفت مديرة المنزل في حراستنا على الباب، وكان جلكلسون منهمكا لا يريد الكلام، وبعد الفحص الأولي سمح لي بالتطلع حولي. وفكرت، لابد أن بافيا نوع غريب من الرجال إذ سمح لصديقه أن يحول منزله إلى متحف بهذا الشكل. وبدأت لا أعتقد بوجود التاجر المتقاعد فالمنزل منزل لوملي، الذي اختار أن يأتي تحت اسم آخر خلال زياراته المتقطعة. وقد يكون السبب في قيامه بذلك غير مرئ. لكني لم أكن أعتقد ذلك، فرئيس خدمة كان يبدو مخادعا.

وقلبت بقدمي غطاء إحدى العلب المكومة التي كان بها تحفا خزفية. فرأيت قطعة ورق تحتها، يبدو أنها برقية، لعلها قد سقطت من شخص كان يفتح العلب وتركها فوق أحدها ثم سقطت على الأرض وغطيت بالغطاء عندما ألقي فوقها .

أعتقد وأتحشم أن أكون أمينا مثل غيري من الناس،

لكن انتابني شعور مباغت بأنني يجب أن أقرأ تلك البرقية. وكان نظر مديرة المنزل الحاد علي. سببا في أنني أخرجت علبة سجائري وكأني سأدخن ، وأسقطها فتدحرجت السجائر هنا وهناك فركعت على ركبتي ألملم فيها، وقلبت البرقية على وجهها.

كانت موجزة تماما، وكانت قادمة من فيينا، وكل ما فيها:



١ - لكن انتابنى شعور مباغت بأنى يجب أن أقرأ تلك الورقة

- أسرع باللحاق إلى بوخارا سارونوف.

وانتهيت من التقاط سجائرى وأعدتها فى العلبة ولنا أفكر فى الموضوع.

وعندما جلسنا في السيارة عائدين للبيت كان جنكلسون مستغرقا في التفكير في التحف، بينما كنت أنا أصل لقرار.

فلقد جمعت بعض معلومات منفصله من خلال ما يبدو ليس أكثر من مصادفات ، وهنا وبمحض أعظم الصدف المدهشة جميعها هو ربط هذه المعلومات سويا أعرف أنني ليس لدى دليل ملموس يمكن استخدامه في قاعة المحكمة. باقيا يعرف بت - هيرون واحتمال لوملي كذلك،. لوملي يعرف باقيا، واحتمال أن يكون نفس الشخص. شخص ما في منزل باقيا - واحتمال أن يكون نوك... وصلته برقية تأمره باللحاق بشخص ما في بوخارا. إنها لا توحي بالكثير. لكنى شعرت باليقين في ذهني أن بت - هيرون كان في بوخارا أو على وشك أن يكون أو أن باقيا - لوملي كان يعرف بكونه هناك، وكان مهتما برحلته.

وفي تلك الليلة بعد العشاء اتصلت بمسز بت - هيرون تليفونيا.

لقد وصلها خطاب من تومي، الذى كان فى حالة نفسية سيئة. لأنه لم يحالفه الحظ. ولا أحد في موسكو قد رأى وسمع

عن أي رجل إنجليزي باسم تشارلز، وتومي بعد أن كان مخبر تحر خاص لمدة ثلاثة أسابيع، أحس بالفشل وتكلم عن العودة للوطن.

فأخبرتها أن ترسل له البرقية التالية باسمها هي:

- اذهب إلى بوخارا. سنقابله هناك.

ووعدت أن ترسل البرقية اليوم التالي، ولم تسأل أسئلة أخرى. حقا، إنها درة بين النساء.

* * *

فصل (٣)

لفوليلة صيف

حتى هذا الوقت. كنت متفرجاً، والآن سأصبح ممثلاً في مسرحية. وكانت تلك البرقية بداية دوري النشط في هذه القضية الغريبة، رغم أنني لم أغادر لندن أبداً.

لا، أنا مخطيء، كانت هناك حادثة واحدة خارج لندن، وربما كانت هذه هي البداية الحقيقية لقصتي.

لقد جاء عيد العنصرة(*) متأخراً تلك السنة، وكنت سعيداً براحة الأسبوعين، لأن البرلمان وقاعات المحاكم قد كبلتني بالعمل. ولقد اشتريت أخيراً سيارة وحصلت على سائق اسمه ستاج، وتطلعت إلى تجربتها في رحلة إلى الريف الغربي. لكني

(*) إجازة دينية تأتي في أواخر الربيع أو في بداية الصيف.

قبل مغادرتي لندن مررت مرة ثانية على مسز بت ـ هيرون.

فوجدتها في قلق شديد. لابد أنكم تذكرون أن تومي وأنا كنا نتصرف دائماً على أن رحلة تشارلز كانت خطة مجنونة من اختراعه قد تورطه في مشاكل. واعتقدنا أنه قد تورط مع بعض الأصدقاء غير المرغوب فيهم، ولعله مشترك في بعض الأعمال التي قد لا تكون إجرامية لكنها بالتأكيد حمقاء. ولقد تخليت عن فكرة الابتزاز، وكانت متأكدة أن لوملي ـ بافيا كان صديقاً له. وكانت نفس الفكرة العامة في ذهن زوجته. لكنها الآن عثرت على شيء يقلب كل هذا رأساً على عقب.

لقد بحثت في أوراقه على أمل أن تعثر على حل لسبب سفره للخارج، فلم نجد سوى خطابات عمل وأشياء من هذا القبيل. ويبدو أنه قد أحرق معظم أوراقه قبل رحيله. لكنها عثرت في أحد الأدراج على ما يبدو مسودة خطاب مخفية، وكان موجهاً لها. وهذا ما كان مكتوباً:

ـ لعلك اعتقدت أنني مجنون، لو أكثر، كي أعاملك هذه المعاملة. لكن كان هناك سبب فظيع، الذى آمل أن أخبرك به في يوم ما. أريد منك حال حصولك على هذا أن تعدّي نفسك للحضور عندي في... وأرفق طيه رسالة أريدك أن تناوليها بيدك لتوليز، محاميّ الخاص، في سرية تامة. وسيرتب لك كل أمور

رحلاتك وبخصوص لرسائلك تقود لي. ويجب أن ترحلي سراً كما فعلت يا حبيبتي، ولا تخبري أحداً بأي شيء. لا أريد أن أخيفك، لكني على حافة خطر فظيع، وأملي في مساعدة الله وفي مساعدتك أن أنجو...

وكان ذلك كل شيء... ومن الواضح أنه مسودة لخطاب كان يدوي أن يرسله لها من مكان بعيد. لكن هل تستطيعون أن تفكروا في خطاب يقلق سيدة أسواه ممن ذلك، سيدة مشحونة بالقلق والفزع من قبل؟

وشحنتني، بالفعل، بالقلق. لم يكن بت - هيرون شخصاً جباناً، كما أنه لم يكن ممن يهولون الأمور. ومع ذلك كان من الواضح أنه هرب في ذلك الصباح من مايو تحت ضغط خوف عظيم.

وبدأت الأمور تبدو في نظري سيئة للغاية. وأرادت ايثيل أن أتجه إلى سكتلنديارد، لكني أقنعتها أن تؤجل ذلك. ليس لأني لا أثق في كفاءتهم، إنما لأني لا أريد أن يصبح الموضوع معلنا الآن، حيث أننا لا نعرف ما هو موجود في أغواره.

فكرت كثيراً حول بت - هيرون وشئونه في أول يوم من رحلة عطلتي، لكن الهواء والتحرك السريع ساعداني على نسيانه. لقد أنعم الله علينا بأسبوعين من الطقس الجميل وكنا ننطلق بالسيارة

طوال النهار عبر الريف الأخضر تحت سماء يونيو الدافئة. وأراحتني هذا التغيير بدنياً ونفسياً أيضاً.

لقد وصلنا إلى حيث ينبع نهر التيمز، ثم عرجنا جنوباً وأقمنا يوماً أو يومين في فندق صغير في التلال. وقضيت الوقت ماشياً ومتسلقاً التلال ومنقباً في الوديان. ثم اتجهنا شرقاً ثانية للعودة للبيت. وأخيراً أزفت العطلة على الانتهاء، ولم يتبق لي منها سوى يومين وفاق أداء السيارة كل آمالي، وحتى سداج الرجل الصامت عادة، كان يثني عليها بابتهاج.

أردت أن أكون في لندن على يوم الاثنين بعد الظهر، وللتأكد من السيارة، قضيت يوماً طويلاً فيها يوم الأحد. وكان لليوم الطويل الذي طرح اعتزازنا أرضاً. فالسيارة كانت على ما يرام فقررت السير بها إلى وقت متأخر، على أن أنام في منزل صديق بالقرب من فارنهام. وجاءت الساعة الثامنة والنصف تقريباً وكنا في طريق ضيق يتلوى ويتعرج بشكل مريك. وعند منعطف حاد اصطدمنا في مؤخرة عربة ثقيلة. ولم تصب العربة بأي شيء، لكن مقدمة السيارة تلفت، واصبت أنا وسداج اصابات طفيفة.

كان سائق العربة ودودا لكن عديم النفع. ولم يكن يوجد أمامنا إلا احضار جياد لأخذ السيارة إلى فارنهام. وهذا سيأخذ بعض ساعات، ووجد بالتقصي في كوخ قريب أنه لا يوجد أي

فندق للإقامة فيه إلا على مسافة ثمانية أميال. فاستعار ستاج دراجة بشكل ما وذهب لاحضار جياد، بينما جلست في ضيق بجانب السيارة.

ولم أحب فكرة قضاء ليلة من ليالي شهر يونيو هكذا، وفكرة منزل صديقي بفارنهام على بعد أميال قليلة كانت مغرية جداً. كانت سأمشي إلى هناك، لكني لا أعرف الطريق وكشفي كان يؤلمني. لذلك قررت أن أحاول في أحد المنازل القريبة حيث أستطيع استخدام سيارة. أصبح جنوب إنجلترا مليء بالناس فشعرت يقينا أني سأصادف كوخاً من الأكواخ التي يقضي فيها أصحابها عطلات نهاية الأسبوع.

مشيت في الطريق الترابي ونور الشمس يخبو. وبعدما مررت على غابة صغيرة وجدت سياجاً يحيط بمتنزه كبير، ثم بوابة عليها اسم «أشجار الدردار» ففتحتها ومشيت نحو منزل لطيف على الطراز القديم، وحائطاً بالورود وأزهار أخرى. رنّت الجرس ففتحت لي خادمة صغيرة نظيفة.

شرحت ما حدث، وأعطيتها بطاقتي. وقلت لها أني عضو في البرلمان وفي نقابة المحامين، ووقعت لي حادثة سيارة وسألت إذا أمكن لصاحب المنزل أن يساعدني للذهاب إلى فارنهام؟ فطلبت الفتاة مني الدخول. ففعلت، وكان يبدو على التعب، فأجلستني

على كرسي في البهو.

وفي بضع دقائق ظهرت مديرة منزل عجوز. لم استلطف نظراتها كثيراً، لكنها حملت رسالة ملطفة. لا توجد سيارة في المنزل حيث إنها ذهبت للمدن في ذلك اليوم للاصلاح. لكن يمكن أن أقضي الليلة في المنزل على الرحب والسعة إذا رغبت. وفي هذه الأثناء يستطيع سائقي أن يعتني بالسيارة، مع توصيل رسالة له على أن يأتي ليأخذني في الصباح.

كنت سعيداً بقبول هذا العرض الكريم، لأن كتفي أصبح يؤلمني. وأخذوني إلى الطابق الثاني إلى حجرة نوم ظريفة جداً مع حمام خاص بها. فأخذت حماماً، وبعد أن أصبحت نظيفاً ومنتعشاً، أخذت طريقي إلى الطابق السفلي ودخلت حجرة رأيت نوراً منبعثاً منها.

كانت مكتبة، ولعلها، أفضل ما رأيت في حياتي. كانت الكتب تغطي الجدران فيما عدا بعض اللوحات الفنية المعلقة ذات القيمة التي لا تقدر بثمن. ومائدة مجهزة للعشاء في أحد الأركان تحت بعض الأضواء المخفية. في البداية ظننت أن المكان خال، لكن عندما عبرت طرف الحجرة نهض شخص من كرسي عميق بجانب المدفأة الفارغة.

وقال صوت:

- مساء الخير مستر ليدن، إنها لفرصة سعيدة أن تمدح شيخاً وحيداً متعة صحبتك.

وأضاء النور الكهربائي، فرأيت أمامي... ما لم يدم عنه الصوت... شيخاً هرماً. كنت في الرابعة والثلاثين في ذلك الوقت، وكنت أعتبر كل شخص فوق الخمسين عجوزاً، لكني قدرت مضيفي أن يكون فوق الستين بكثير. كان في حجمي تقريباً، مع انحناءة في كتفيه، وكأنها من الانكباب على القراءة. كان وجهه حليقاً ورقيقاً بشكل غير عادي، والفم دقيق والأنف مستقيم ورفيع. وكان شعره فضياً، وكان يضع نظارة داكنة.كان الشخص لطيفاً جداً والذي حيّاني بصوت ممتلىء ومريح، لا يتناسب مع سنه على الاطلاق.

وكان العشاء خفيفاً، لكنه متكامل. أتذكر أنه كان يوجد سمك، ودجاج مطهي جيداً، وبعض الفاكهة والحلوى، مع وجود نبيذ فاخر. وخدمت علينا الخادمة الأنيقة، وأثناء ما كنا نتحدّث عن الطقس وطرق الريف، حاولت أن أخمّن مهنة مضيفي. إنه ليس بمحامي، لأنه ليس لديه تجاعيد في وجهه. فكرت لعله أستاذ في اكسفورد متقاعد، أو صاحب منصب حكومي رفيع، أو شيء ما يتعلق بالمتحف البريطاني. وتظهر مكتبته ثقافته، ويظهر صوته

وسلوكه أنه «جنتلمان».

وبعد ذلك جلسنا على مقاعد وثيرة وتحدثنا. وبدأنا بالكتب، ثم إلى السياسة... لكن مضيفى لم يكن مهتماً كثيراً بمواضيع السياسة الحزبية، كان محباً للتعرف على أمور الدفاع الوطنى.

ثم اتجهنا إلى الشئون الخارجية، حيث وجدت اهتمامه عظيماً ومعرفته مهولة. كان فى الحقيقة يتكلم عن معرفة، لدرجة أننى بدأت أشك في تخميناتي ولابد أنه خدم الحكومة فى الخارج. لقد استطاع أن يضمّ كل النقاط الصغيرة التى كانت تلتقى فى أوقات مختلفة فى شئون مناطق مختلفة من العالم.

وبعد برهة خلع مضيفى نظارته الداكنة فرأيت عينيه. لقد ذكرتنى بيت - هيرون. كان فى عينى تشارلز ضوء قلق من النوع الراقص دائماً... عينان جذابتان لكنهما مزعجتان. وكان للشيخ هذا وأكثر. كانت عيناه أكثر شحوباً عن أى شخص آخر... شاحبتين، براقتين، وجامدتين بشكل غريب. لكن بينما كانت عينا بت - هيرون تعطيان الإنسان الاحساس بالشباب اللامبالى، كانت عينا هذا الرجل تظهران الحكمة والقوة.

واختفت كل أفكارى عنه، لأنى لا استطيع أن أصدق أن مضيفى كان ينتمى لأية مهنة. وإذا كان، لكان على قمتها، وألف

العالم كله وجهه. وبدأت أتساءل إذا كانت ذاكرتي تخونني، وكنت في حضور شخصية عظيمة التي يجب أن أعرفها.

وسألني لماذا اخترت مهنة المحاماة.

قلت:

- حسن، إنني مخلوق ناضب، يحب الحقائق والمبررات، وليس لدي كثير من الخيال، ولا أفكار جديدة، ولا أريد قيادة الرجال، وأحب عملي. فأنا الشاب المتعلم العادي، والذي على شاكلتي يتجه عادة للقانون. إننا نحب أن نشعر بذلك، إذا لم نكن المبدعين، فعلى أية حال نحن أسمنت الحضارة.

فكرر الكلمات بصوته المريح:

- «أسمنت الحضارة». إنك على حق إلى حد ما، لكن الحضارة تحتاج إلى أكثر من القانونن لتتماسك. كما ترى، لا يتساوى الناس في قبول قوانين الحضارة.

قلت:

- طبعاً هناك أشياء أخرى، الشرطة والجيوش واستعداد الناس في إطاعة القانون.

فأمسك بي بسرعة وقال:

- الأخيرة هي أسمنتك الحقيقي. هل فكرت متر ليثن، كم هي ضعيفة فعلاً؟

قلت:

- بل المفروض أن أفكر أنها قوية تماماً. والقاعدة تزداد تماسكاً كل يوم.

فضحك، وقال:

- ذلك رأي المحامي، لكن صدقني، إنك مخطيء.

فكر لحظة، وستجد تلك القاعدة مصنوعة من الرمال. وأنت ترى أن جداراً قوياً، صلباً يفصل الحضارة عن الهمجية. وأنا أقول لك إن الفاصل عبارة عن لوح من زجاج، شعره. لمسة هنا، ودفعة هناك، وسترى الحضارة تنهار أشلاءً.

كانت نوعاً من المحادثة الشائعة بين طلاب الجامعات وأحياناً ما نسمعها بين الكبار بعد العشاء، فقط لمجرد الاستمتاع. تطلعت إلى مضيفي، فرأيته جاداً تماماً. وكانت عيناه البراقتان الجامحتان تراقباني بدقة.

وقال:

- خذ مثلاً بسيطاً. نحن عالم تجاري، ولقد أنشأنا نظام ائتمان

ليم مبنياً على التسليف. وبدونه الحياة قد تقف. لكن الائتمان جود فقط لأن لدينا خلفه شيئاً له قيمة حقيقية تسانده. فأوراق تد لا شيء أكثر من أوراق الا إذا كان هناك ذهب في البنك. ند ثبتنا على الذهب لأنه نادر ويمكن حمله وتخزينه بسهولة، ن لنفرض أن شيئاً ما حدث وجعل كل ذهبنا لا قيمة له. رض أن حلم القرون الوسطى أصبح حقيقة، واكتشفنا كيف نع الذهب! فكل النظام التجارى الدولى والوطنى سيتحطم، ن نهاية الائتمان ستنتهى الصناعة، وتنتهى الحضارة كما رفها.

لم أفكر كثيراً فى المثل الذى ضربه، وقلت:

- بالطبع توجد مفاتيح كثيرة فى الحضارة، وضياعها قد لب الدمار. لكن تلك المفاتيح مصانة تماماً.

فأجاب:

- ليست بالقوة التى تظنها. فى هذه الأيام، توجد كثير من شياء الصغيرة الرقيقة التى تعتمد عليها آلية الحضارة.

قلت:

- نسيت شيئاً واحداً، وهى حقيقة أن الناس متفقة على الحفاظ ى سير الآلة. وذلك ما سميته استعداد الناس للطاعة.

- لقد وضعت اصبعك على الشيء الوحيد الهام.

فالحضارة ستدوم فقط حتى يأتي اتفاق آخر... ضدها.

كانت محادثة غريبة، ليست بسبب ما قاله بقدر ما كان بسبب الطريقة التي كان يقول بها. كانت الحجرة معتمة تقريباً، لكني كنت أعرف أن تلك العينين الشاحبتين تنظران إليّ. وبدأت أتساءل إذا لم يكن مضيفي مخبولاً قليلاً. على أي حال، لقد تعبت من أفكاره، وقلت:

- كنت أعتقد أنه من الفائدة لأفضل عقول العالم جميعها أن تحافظ على مسيرة الاتفاقية.

فأجاب ببطء:

- أتساءل، هل تعمل أفضل العقول من أجل الحضارة أم ضدها؟ هل المهرة من الناس فعلاً يذهبون إلى الحكومة؟ ومع ذلك فالمعرفة هي القوة الوحيدة... الآن ودائماً. اختراع صغير قد يجعل من جيوشك ومدمراتك لا جدوى لها... ومع ذلك، لا تحلم اطلاقاً إن هذه الأشياء ممكنة.

قلت:

- بالتأكيد، أول شيء يقوم به المكتشف هو أن يجعل اكتشافه

شائعاً. إنه يريد الشرف، والمكانة المرموقة، والمال. ولن تصبح اكتشافاته جزءاً من معرفة العالم، وإذا كانت شيئاً جديداً، فالظروف القديمة تتغير لتتواءم معها. وهذا ما حدث مع الكهرباء.

فأجاب في صوت منخفض:

- كل المعارف الجديدة لم تصبح ملكاً للعالم. فالمعارف الأعظم تحفظ سراً... حتى يأتي الوقت لا ستخدامها، ولن يكون ذلك في جانب الحضارة.

وتردد للحظة، ثم استمر قائلاً:

- حتى الآن هناك معارف تستطيع صنع أسلحة دمار تفوق أي وسيلة دفاع. إنها سرية، لكن صدقني، إنها موجودة.

واستمر في ضرب بعض الأمثلة لأمور لا تفسير لها قد حدثت في السنوات القليلة الماضية... حادث مروّع، شجار مفاجيء بين أمتين، انتشار أمراض بين نباتات هامة معينة، حرب...

لا أعتقد أنني أومن بها، لكن بالتأكيد تأثرت بها في وقتها.

قلت:

- إذا كان ما تقوله حقيقياً، فما هو السبب وراء هذه الهجمات

على الحضارة؟

- هناك نوعان من الرجال المهتمين... أو هذا ما أفترضه... البعض يود صنع عالم جديد، والبعض الآخر فنانون يتبعون الحقيقة من أجل ذاتها. الأولون يكتشفون المعرفة، واللاحقون لديهم الإرادة في استخدامها.

قلت:

- إذا كانت هذه العقول غير الاجتماعية بهذه القوة فكيف يكون فعلها ضئيلاً هكذا؟ ويمكن لضابط شرطة... مع الآلة الحضارية من خلفه أن يضحك على مثل هذه التجارب. صحيح، هذه هي الحالة... في الوقت الراهن. لكن أعداء الآلة لابد أن يتعلموا منها كيف تحتفظ بقوتها، وهم، أيضاً يجب أن يتعلموا أن يعملوا سوياً، وعندما يعملون...

قلت:

- إنها فكرة مروعة، وحمداً لله، أنا لا أصدق أنها ممكنة. لابد من وجود نابليون للتدمير لوضع مثل هذه الأفكار في حيز التنفيذ.

فأجاب، بعد أن نهض وأضاء النور:

- نابليون ليس ضروريا. كل ما هو مطلوب هو التوجيه... نوع من بيت القوة... كل ما في الأمر.

نهضت، لأن الساعة كانت متأخرة، وكنت قد اكتفيت تماماً من حديثه. وكان مضيفي يبتسم، وأعتقد أن تلك الابتسامة هي الشيء الذي كرهته فعلاً فيه. إنها كانت... ماذا أقول؟... متعالية أكثر من اللازم، وكأنه كان يتكلم مع طفل.

وأعتذر عن ابقائي مستيقظاً لهذا الوقت المتأخر، ووجهني لحجرتي. ووجدت أنني لا أستطيع النوم، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في الحديث الذي قاله، والأثر الغريب لسلوك الرجل عليّ. وكان لدي نوع من الاحساس بأنه قد حاول أن يحرضني ضد إرادتي، ليعد أساساً لمرض ما. وعندما نمت أخيراً، كان تعبير «بيت القوّة» يلف ويدور في رأسي. وأحسست أنني أمقت مضيفي المبتسم...

استيقظت مبكراً، حوالي السابعة، فلبست ونزلت للطابق السفلي. فسمعت صوت سيارة بالخارج، ولسروري رأيت أن ستاج قد وصل. فقررت أن أغادر المنزل فور ما أستطيع، ولم يكن لدي رغبة في رؤية سيده ثانية.

رننت الجرس لمديرة المنزل، التي استمعت لتعليماتي في صمت. وقالت إني أستطيع تناول الإفطار في غضون عشرين

دقيقة، فالثامنة هي ساعة تناول مستر لوملي لإفطاره. فسألت في ذهول:

- مستر أندرو لوملي؟

فكررت مديرة المنزل:

- مستر أندرو لوملي.

وهكذا كان اسم مضيفي. جلست على مكتب صغير في البهو واقترفت شيئاً أحمق.

كتبت رسالة، بادئها «بعزيزي مستر لوملي»، شكرته على كرمه وشرحت سبب مبادرتي مبكراً هكذا. وقلت إنه كان على أن أكون في لندن عند الظهر. ثم أضفت:

- كنت أود لو كنت أعرف من أنت الليلة الماضية، لأنى أظن أنك تعرف صديقاً قديماً لي، تشارلز بت - هيرون.

وبلا إفطار التحقت بستاج في السيارة، وكنا نتأرجح في الحال هابطين إلى الوادي. وكان لدى الكثير لأفكر فيه. صديق بت - هيرون، الذي يعرف عن نهايه إلى بوخارا، كان هو الرجل المخبول الذي يحلم «ببيت القوة». ستكون هناك مشاهد معتمة في القصة قبل أن تأتي إلى النهاية.

* * *

فصل (٤)

اقتفائي لأثر رئيس الخلم

كانت فكرتي الأولى، عندما اقتربت من لندن، أنني كنت وحيداً بفظاعة في هذه المهمة.

ومهما كان يجب على أن أفعل فيجب أن أفعله بنفسي، لأن الحقيقة كانت أنني لا أملك أي دليل يمكن لأي جهة أن تعترف به. كان بت - هيرون صديقاً لمخلوق غريب يجمع التحف الفنية، ولعله يحمل اسماً مزيفاً في جنوب شرق لندن، ولديه أفكار مجنونة عن نهاية الحضارة. وما دونته كان كل ما وصلت إليه فصحى. إذا ذهبت للشرطة، فقد يضحكون على، ومعهم حق.

ومع ذلك، كانت القصة تبدو واضحة، بالنسبة لي، وأصدقها كلية. وكنت أستطيع أن أتخيل أول لقاء لبت - هيرون مع لوملي

ونمو صداقتهما، ودروسه في الأمور السرية والممنوعة، وتغيير رأيه عندما وجد أين قادته حماقته. ثم قد يأتي إدراكه أنه لا يستطيع الفكاك، وأن لوملي يقيده في قوته، وأخيراً هروبه المجنون تحت ضغط خوف كبير.

وكنت أستطيع الآن فهم غرض ذلك الهروب. إنه يعرف حدود أفغانستان والحدود الهندية جيداً، وكان يأمل أن يلقى أي من مقتفي أثره بعيداً عن مساراته. ثم من مكانه البعيد، قد يرسل وراء زوجته ويقضي بقية حياته في المنفى. ياله من خوف عظيم هذا الذي يدفع مثل هذا الرجل، الشاب، الماهر، الثرى، الناجح، إلى مصير مجرم هارب.

لكن لوملي كان في أثره. ذلك ما فهمته من البرقية التي قرأتها. ومن واجبي أن أمنع لوملي من الامساك به. لقد ذهب شخص ما إلى بوخارا، ولعله توك، وقد يكون هناك الآن. فلقد لاحظت تاريخ البرقية، التي تم استلامها في ٢٧ مايو، واليوم ١٥ يونيو.

لابد أن أعرف من هو الذي ذهب، وأحاول أن أحذر تومي. وحسبت أنها قد تأخذ منه سبعة أو ثمانية أيام لأنه ذهب عن طريق موسكو، وكان عليه أن يعبر بحر قزوين ومن المحتمل أن يجد بت - هيرون قد رحل، لكن الاستفسارات ستدل على مكانه.

لابد أن أحاول الاتصال به عن طريق المسئولين الروس. على أية حال، إذا كان لوملي يقتفي أثر بت - هيرون، فأنا، بصفتي غير معروف وغير مشكوك فيّ، سأراقب لوملي ثم أدركت في لمحة واحدة كم كنت أحمق. فالرسالة التي كتبتها في الصباح عرّفت لوملي كل شيء، أو تقريباً كل شيء. إنه يعرف الآن أنني صديق لبت - هيرون وأني أعرف أنه صديق أيضاً. وبالتأكيد سيخمّن أن تشارلز قد أخبرني شيئاً، وأنني الرجل الوحيد في لندن الذي يستطيع أن يربط بين هروب تشارلز ولوملي. فكانت رسالتي انذاراً له على أنه لا يستطيع أن يقوم باللعبة بلا مراقبة. وأنا أيضاً سأكون موضع شك في نظره.

ولا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب، ويجب قبول شكوك لوملي. ولست خجلاً أن أقول أني لم أرتعد خوفاً من فكرة أنني أعادي العقل الجبار، الرجل الذي يتحكم، بلا شك، في منظمة مهولة بعيدة الأثر. وأحسست مثل طفل يندفع لعبة يحارب ضد بيت قوة عظيم بتروسه البراقة وماكيناته الكبيرة.

كان أول عمل لي هو الاتصال بتومي. وكان لي في ذلك الوقت صديق في إحدى السفارات، رجل له حيثية. ولقد ساعدته في بعض القضايا القانونية، وكثيراً ما كنا نتناول العشاء معاً. لا أستطيع أن أبوح لكم باسمه، لأنه واحد من الرجال العظام في

العالم اليوم، ولا أعتقد أن الدور الذي لعبه في هذه القضية كان مطابقاً للقانون. دعنا نسميه مسيو فيلكس. كان شاباً جاداً، أكبر مني بقليل، مدققاً، طموحاً، لكن بروح صبيانية لطيفة تظهر غالباً تحت مسلكه الرسمي. وخطر على أن ألجأ له لمساعدتي. وصلت لندن حوالي الحادية عشرة صباحاً، فتوجهت مباشرة إلى ميدان بلجريف. فوجدت فيلكس في المكتبة، عائداً من إجازة صيد في النرويج. فسألته إذا كان خالياً لمدة نصف ساعة، فقال لي إن يومه كله تحت أمري.

فسألت:

- هل تعرف تومي ديلورين؟

- نعم، أعرفه.

- وتشارلز بت - هيرون؟

- لقد سمعت عنه.

- حسن، إليك مشكلتي. عندي أسباب لاعتقادي بأن تومي قد التحق ببت - هيرون في بوخارا. وإذا كان قد التحق فعلاً، فسيرتاح ذهني كثيراً، لأني، رغم عدم إمكاني إخبارك بالقصة، استطيع أن أقول لك أن بت - هيرون في خطر عظيم. فهل تملك مساعدتي؟

فكر فيلكس قليلاً، ثم قال:

- ذلك سيكون سهلاً للغاية. يمكن أن أبعث ببرقية للحاكم، والشرطة هناك جيدة، كما قد تتخيل، والمسافرون لا يجيئون ويذهبون بدون مراقبة. أستطيع أن أعطيك إجابة في غضون أربع وعشرين ساعة.

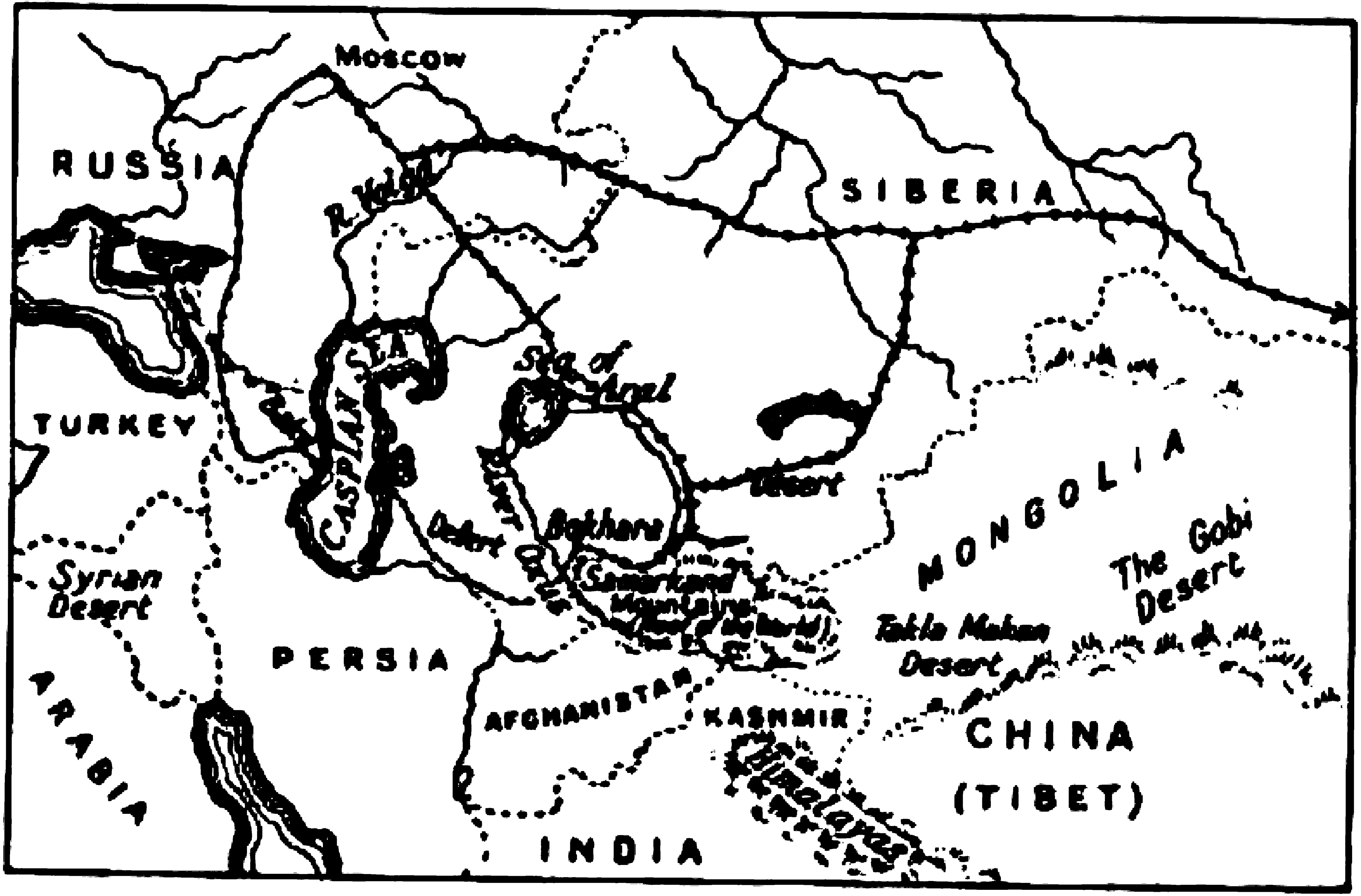
قلت:

- أريد منك أن تخبرني بشيء آخر. بت - هيرون، كما تعرف، له سمعة واعتباره كسائح في آسيا الوسطى. وتومي، طبعاً، مجنون تماماً. نفترض أن هذين الشابين في بخارا ويريدان أن يقوما برحلة طويلة بالطريق البري...

فكيف يسيران؟ لقد كنت هناك، وتعرف هذه البلاد.

أحضر فيلكس خريطة كبيرة لتركستان وأخذنا نتفحّصها لمدة نصف ساعة. وقال، إن الطريق الوحيد من بخارا، لأناس مجانين يتجه إلى الجنوب. فالشرق والشمال يؤديان إلى سيبريا، وفي الغرب تقع الصحراء، لكن جهة الجنوب يمكنهما أن يتسلقا الجبال إلى كشمير في شمال الهند، أو يتبعا نهر أوكسوس ويدخلا أفغانستان.

وطلبت منه أن يكتب في برقيته اقتراحاً بمراقبة هذه الطرق، وتركته.



٢ ـ خريطة تركستان الروسية

ثم ذهبت إلى مكتبي، وقمت ببعض الأعمال الضرورية وقضيت أمسية هادئة في شقتي.. وكان لدى إحساس، ثقيل بأني أصبحت شريراً، فليس من الطبيعي رؤية ما قد حدث. ولا أستطيع أن أفكر فعلاً ما الذي جعلني أواصل هذه المهمة، لأني أقر، ولا مانع عندي من ذلك، بأني أشعر بالخوف. إلى حد ما، بلا شك، بسبب حبي لتومي وايديل، وإلى حد ما لأسفي على ذلك الشاب اللص بت - هيرون، وإلى حد بعيد، على ما أعتقد، بسبب عدم حبي للوملي. فشيء بخصوصه يجعلني أمقته بشدة.

وفي اليوم التالي كنت منهمكاً في قضية في محكمة أولد بيلي(*) . وأحد الأمور المدهشة بخصوص قصتي هذه هي طريقة الحقائق الصغيرة التي تظل تظهر لمساعدتي، وأعتقد أن العالم في الواقع مليء بمثل هذه الحقائق، وإنما سلط عقل الإنسان على شيء ما، فسيلاحظ ما كان لا يلاحظه، ويستفيد منه.

ففي بعد الظهر كان على أن أستجوب واحداً من الشهود. وكان موظفاً سكيراً مسناً نوعاً ما، واسمه روث، ويتحدث مثل أهل البلاد الشماليين. لكن ما لفت نظري هو وجهه. كان فكه يبدو وكأنه مقسّما لقطعتين لا يتناسبان سوياً، وكانت له عينان براقتان

(*) محكمة للجرائم مشهورة في لندن.

صغيرتان. وخيل لي أنني قد رأيته من قبل.

وفيما بعد استطعت أن أراه على انفراد. وعندما غادر كاتبي، بدأت أجري معه استجواباً خاصاً.

كان رجلاً نعماً جاهزاً للحديث بلا أدنى مجهود.

وعلمت تفاصيل تعاساته المستمرة. كان ابنا لرجل محترم من نتور نجرلاند مارس كل الأعمال. وكان صادقاً تماماً، وليس لديه شيء يخفيه، لأنه كان أحمق، وليس مجرماً. وقال إنه كان رجلاً محترما وحسن التعليم، أيضاً، لكن لم يكن لديه حظ أبداً. ولقد نصحه أخوه كثيراً، وكان أخوه رجلاً حانقاً جداً.

وأردت أن أعرف من أخيه، وكان مستر روث تواقا للحديث. وفي الحقيقة، كان من الصعب استخراج الحقائق من كثرة الأشياء التي قالها. لقد كان أخوه مهندساً وناجحاً جداً، ولقد مارس السياسة أيضاً، وكان مخترعاً عظيماً. ولقد ساعد مستر روث، لأنه كان أخاً طيباً بطريقته الخاصة، لكنه كان رجلاً مشغولاً جداً، ومساعدته لم تكن بشكل كاف أبداً. علاوة على أنه كان لا يحب الالحاح في السؤال.

فسألت بلا مبالاة:

- وماذا يفعل الآن؟

قال مستر روث:

- آه، ذلك ما أود أن أعرفه. ولن أخفى عنك ذلك لأنى حالياً فى مشكلة مالية. فهذه القضية لن تسهل الأمور لى، بالرغم من أنى لم أفعل شيئاً غير شريف. إن أخى شخص غامض، وعمله غالباً ما يأخذه للخارج.

فقاطعته مستفسراً:

- وما هو عمله؟

- لا أعرف بالضبط. إنه فى بعض الأعمال الكهربائية الكبرى، لأنه قال ذات مرة أنه مسئول عن محطة قوى.

- هنا فى إنجلترا؟

- لا ... حسن، ليس في لندن. وربما فى الخارج. سمعت منه منذ أسبوعين، وقال أنه سيسافر للخارج لمدة شهرين. وهنا ما يضايقنى، لأنى أريد أن أتصل به.

- أعتقد أننى قد قابلت أخاك يا مستر روث، هل هو يشبهك؟

- هناك شبه عائلى، لكنه أطول وأنحف. فهو يعيش حياة صحية أكثر منى.

فسألت:

- هل تصادف وعلمت أنه يستخدم اسماً آخر؟

فالرجل الذى كنت أعرفه لا أعتقد أن اسمه روث. فاحمر وجه الموظف وأجاب:

- لا أعتقد. فهو لم يفعل ما يخجل اسم العائلة، الذى نفتخر به.

وقلت لعلى مخطىء، وانفصلنا أصدقاء. وكان رجلاً بريئاً، من هؤلاء الناس الذين يحركونهم من هم ليسوا شرفاء فى تصريف أمورهم بلا ريبة أو اشباه. كانا يشبهان بعضهما كثيراً. فها هو رئيس الخدم من بلاكهيث الذى يسافر تحت اسم توك، بدون فهم أو قوة.

لقد أعطانى الموظف عنوان المكتب الذى يكتب من خلاله الخطابات لأخيه. ولم أندهش لأجده مكتب السماسرة الذى مازلت أمثله فى القضية التى قد سمعت فيها اسم بافيا.

واتصلت تليفونياً بالسمسار الذى أعرفه فى الشركة، وقلت أن لدى رسالة لواحد من خدم مستر بافيا، وسألته إذا كان على اتصال بهم. وكان جوابه ما كنت أتوقعه. لقد بعثوا بخطابات فى أوقات مختلفة إلى توك، رئيس الخدم، وأيضاً إلى روث، الذى، أعتقد، أنه خادم آخر. ولقد ذهب توك للخارج للالتحاق بسيده مستر بافيا. ونصحنى بالكتابه للمقر الأبيض.

فشكرته وأنهيت المكالمة. كان اسم تولك الحقيقي روث، وكان تولك هو الذي قد ذهب إلى بوخارا.

كانت خطوتي التالية هي أن أتصل بما كجليفراي بسكتلانديارد وأرتب لمقابلته. وبعد نصف ساعة كنت في مكتبه.

لقد كان محامياً، وأصبح الآن أحد رؤساء شعبة التحقيقات الجنائية. وقلت له إنني سأسأل عن معلومات ليس مضطرا أن يعطيها لي، لكن كصديق قديم فهو يعرف أنه يستطيع أن يثق في.

وسألته في البداية إذا كان قد سمع عن منظمة سرية تدعى بيت القوة. فضحك عالياً على سؤالي، وقال:

- أعتقد أن في سجلاتنا يوجد عدة مئات من هذا الاسم، فكلما قلت أهمية عصابة من المجرمين ازداد الاسم رنيناً. أما الخطرون منهم فعلاً، فلا اسم لهم، ولا دليل، يجعلنا نستطيع الامساك به. لكن سأحضر رجلاً ليبحث في سجلاتنا فلعله يجد شيئاً عن بيت القوة.

أما سؤالي الثاني فأجابه بطريقة مختلفة:

- روث؟ آه، نعم، هنا نتعامل مع واحد اسمه روث من مدين طويلة. إنه عضو نقابي، وسرق أموال النقابة، لكنهم لم يستطيعوا

احضاره للمحاكمة لعدم توفر الأدلة. أوه، نعم، لقد كان رجلاً سيئاً جداً. كل شخص كان يعرف أنه قد سرق النقود، لكنه كان يفوقهم حذقا وبراعة. إني أذكره، عينان غريبتان، وفم له براعة شيطانية. لقد اختفى من إنجلترا، على ما أظن. على أية حال، لم نسمع عنه من بضع سنين. ويمكن أن أحضر لك صورة له.

وأخرج ماكجليفراي مجموعة بطاقات من أحد الأدراج، واختار واحدة، ومررها على. وكان هوتوك بالفعل... العينان، الرأس والفك غير المتناسب بشكل لا يمكن الشك فيه. وفى الصورة كانت سوالفه طويلة على نظام رؤساء الخدم القدامى.

وعد ماكجليفراي أن يقوم بتحريات معينة، ومشيت للبيت شاعراً بالاغتباط. فلم أعرف فقط من ذهب إلى بوخارا، لكن عرفت أيضاً أشياء عن ماضى المسافر. رجل مثل توك مهندس ومخترع بارع، له سوابق كان الرجل المناسب لخطط لوملى. سيكون تواقاً تماماً فى استخدام عقله لعمل يعادى المجتمع... بل حتى إجرامى. وكان المسئول النقابى للسابق فى مكان ما فى قفار تركستان بحثاً عن بت - هيرون. ولا أعتقد أن مستر توك يتردد فى ارتكاب جريمة قتل.

تعشيت مبكراً فى النادى. وفى ذهابى للبيت، شعرت بأن أحداً يتتبعنى. إنه احساس غير مريح، صعب وصفه، يجعلك تشعر

ببرودة بين كتفيك.

كانت أمسية صيف دافئة ومنطقة بيكاديللي بها زحامها المعتاد من سيارات وأتوبيسات ومشاة على الأقدام.

وقفت مرتين وتلفت خلفي، وكل مرة كنت أشعر بأحد ما على بعد مائة ياردة تقريباً قد فعل نفس الشيء. لكني لم أستطع التثبت من ذلك في مثل هذا الزحام، لذلك عدت للبيت وطردت الموضوع من رأسي.

وفي العاشرة تقريباً ذلك المساء اتصل بي فيلكس. لقد جاءته الإجابة من بوخارا. لقد غادر بت - هيرون مع جماعة صغيرة في الثاني من يونيو عن الطريق الرئيسي عبر الجبال. ولقد وصل نومي في العاشر من يونيو، وفي الثاني عشر أقلع مع اثنين من الخدم من نفس الطريق. ولابد أن يلحق ببت - هيرون على الخامس عشر على أسوأ الفروض.وكان ذلك بالأمس، فارتاح عقلي كثيراً. كان نومي في مثل هذه المواقف ونداً من القوة، فمهما كان فاشلاً في السياسة، فلم أعرف أحداً أعتمد عليه في وقت الشدة مثله.

في اليوم التالي أيقنت بأن هناك من يتتبعني كان من عادتي أن أمشي إلى مكتبي عن الطريق الموازي للنهر، لكن حيث لم

تكن لدى قضية في المحكمة في ذلك اليوم، قررت أن ألف من طريق أطول ولنتأكد من شكوكي.

لم يكن يوجد أحد في الشارع عند خروجي من شقتي، لكن لم أخط أكثر من خمس خطوات إلا واستدرت للخلف، فرأيت رجالاً يدخلون الشارع من كل جانب، وأحسست أنهم من يراقبونني، لذلك قررت أن أقوم بحيلة لخداعهم. فأسرعت إلى أقرب محطة لمترو الأنفاق، وأخذت أول قطار، وعندما وصل المحطة التالية، قفزت فجأة منه. وعند وصولي للشارع، اختفيت وراء أحد العمدان لأرى إذا كان أي أحد يركض صاعدا السلالم. وفعلاً صعد رجل مقطوع الأنفاس، وتوقف وأخذ ينظر هنا وهناك. وهنا كان الدليل الذي أردته.

وفي مكتبي وجدت صعوبة في التركيز في عملي. كنت أفكر طول الوقت في الموضوع التعس الذي وجدت نفسي متورطاً فيه. ولا يبدو هناك مفر منه. والأمر الذي يخبل العقل أنني لا أستطيع عملاً إلا القليل. وكان علي أن أكون صبوراً وأتصيد الفرصة لو كانت هناك واحدة في الألف. وشعرت بالتعاسة إزاء كل شيء. إنني لم أصطد حيوانات مفترسة أو خاطرت بحياتي في كل أنواع المغامرات مثل تومي ديلورين. إنني محام مسالم، محب للحياة الهادئة، بلا رغبة في الخطر. لكني بدأت أدرك إني كنت عنيداً.

في الساعة الرابعة تركت مكتبي وذهبت إلى السفارة. ومنحني فيلكس ساعة من وقته الثمين. علمت أن تومي قد لحق ببت ـ هيرون، لكن هناك أمورا أخرى يجب ترتيبها في تلك البلاد البعيدة. لقد جاء الوقت، في رأيي، لاخباره بالقصة كاملة.

وكان في ذلك راحة لعقلي، ولم يسخر مني كما توجست، لكنه أخذ الأمر كله بجدية شديدة. وقال، إن الخطوة التالية هي تحذير الشرطة الروسية بوجود رجل يدعى سارونوف ورئيس الخدم. وكان من السهل وصف نوك، أو روث، ويبعث فيلكس ببرقية سرية طالبا من رجاله أن يقوموا بالمراقبة، خصوصا إذا سلكوا طريق تومي. وتفحصنا الخريطة ثانية، وكان من الملاحظ أن الطرق تتبع الوديان، ومن يسافر خفيفاً يستطيع بسهولة أن يختصر الطريق عبر التلال.

تركت السفارة بعد الساعة السادسة، وفي الخارج كدت أصطدم بلوملي. وعلى الرغم من أنني لم أستطع إخفاء اندهاشي، حاولت أن ألعب دوري جيداً. كان يبدو صورة من صور الاحترام البريطاني.

قال:

ـ آه، مستر ليثن، ها نحن نتقابل ثانية.

فقلت شيئاً عن أسفي في مغادرة منزله مبكراً منذ ثلاثة أيام، وأضفت:

- إنني مدين لك بالكثير، من أجل كرمك، ونصحك، وتحذيراتك عن السقوط القادم للحضارة.

ونظر إلي بكل الود الذي في الدنيا، وقال:

- إذن، لم تنس حديث المساء؟ إنني أسير في هذا الطريق. هل يمكنني الاستمتاع برفقتك؟

فأجبت، متمنياً لو أنني لم ألتق به:

- بالتأكيد.

واستمر لوملي:

- إذن أنت تعرف صديقي بت - هيرون؟ لقد أبهج، مثلك، وحده رجلاً عجوزاً يوماً ما. لقد حدثك عني؟

فكذبت قائلاً:

- نعم، لقد اعتاد أن يحدثني عن مقتنياتك الفنية.

- فعلاً؟ لم أكن أعرف أنك مهتم بالفن. فبت - هيرون لا يهتم. إنه يحب الحياة أفضل من الفن.

وتوقفنا عند الناصية، وقال:

- مستر ليان. كلمة من شخص لا يحمل لك أية إساءة. إنك صديق لبت - هيرون، لكن أين يذهب فإنك لا تقدر على ملاحقته. خذ نصيحتي وابعد عن شئونه. فلن تفيده في شيء، وقد تجلب لنفسك مخاطر جسيمة. إنك رجل عاقل وعملي، لذلك أتكلم معك بصراحة. لكن تذكر إنني لا أحذر مرتين.

وخلع نظارته الداكنة أثناء حديثه، وتطلعت عيناه المضببتان الجامدتان في وجهي مباشرة. ورحل كل الكرم، واشتعل فيهما شيئاً قاتماً مقيتاً. وقبل أن أتفوه بكلمة، كان قد مضى..

* * *

فصل (٥)

اتخاذ شريك

أعطاني ذلك اللقاء مع تومي شيئاً من الخوف، لكنه أيضاً جعلني أكثر عزماً. يمكن لأكثر الناس سلاماً على الأرض أن يقاد إلى القتال. فلدى الآن أكثر من صداقتي لتومي وتعاطفي مع بت هيرون لحثي على الاستمرار. لقد حاول إنسان أن يفرض على شيئاً ضد إرادتي، وأيقظ ذلك كل ما هو عنيد في داخلي. وسأواصل هذه المهمة مهما كان الثمن.

لكن لابد أن يكون لي شريك ليساعدني، لأني لا أستطيع أن أواجه ذلك وحدي. اتجه ذهني إلى تشابمان صديق تومي. فكرت بكل ارتياح في الشاب القادم من يوركشير الضخم، القوي،. وذهبت لأراه تلك الليلة في مجلس العموم.

كان قد حصل على بعض المتاعب مع أعضاء حزبى للشبان بعد ظهر اليوم ولم يستقبلنى بالأدب المطلوب.

قال غاضباً:

- إنى على وشك الضيق من زملائك، إنهم أفسدوا أفضل حديث ألقيته.. لو حتى سمعه المجلس.. خلال السنة الأخيرة. فأطلقوا النكات وجعلوا كل شخص يضحك، بينما كانت الخطبة كلها عن أمر جاد.

واستمر هكذا لفترة، لكنى هدأته وطيبت خاطره وسألته إذا أمكن أن ينصت لى.

وقلت:

- أريدك أن تخبرنى عن روث... إنك تعرف الشخص الذى أقصده، الرجل الذى كان مسئولاً فى الاتحاد التجارى. فجعله هذا يشيط غضباً أكثر من قبل، حيث صاح:

- وها أنت أيضاً! لا يمكن أن تعدل فى قدرتك. ونلقى فى وجوهنا بالماضى البغيض. يمكنك أن تعرف عن روث بنفسك، فلن أساعدك.

فرأيت إننى لن أجدى نفعاً مع تشابمان إلا إذا رويت له القصة

بحذافيرها من بدايتها ،وهذا ما فعلته فى المرة التالية ذلك اليوم.

ولايمكن أن أتمنى مستمعاً أفضل. وأصبح ثائراً بعنف قبل أن أنهي القصة. كان مثل معظم حزبه يكره الهجوم على النظام الحالي من قبل رجال معادين للمجتمع أمثال لوملي أكثر من كراهيته للأحزاب السياسية المعادية. كان يريد أن يغير ويحسّن ولا يدمر. علاوة على أنه كان يحب تومي ديلورين.

وقال لى إن روث كانن مهندساً شاباً، حسن التعليم، يعمل فى مصنع كبير بشيفلد. وكان من المفروض أن لديه أفكاراً سياسية تقدمية ،ولقد أخذ أموال أحد الفروع الكبيرة. ولقد قابله تشابمان عدة مرات، وعرف عنه أنه من أبرع الرجال بشكل غير عادى.

وأضاف تشابمان:

- لكنه لم يكن محبوباً. كان ذا دم بارد، شيطاناً متشامخاً، وأوقح رجل قابلته فى عمرى. وكان الاعتقاد أنه قد خسر الأموال فى شراء أسهم لنفسه، لكن حسب اعتقادى إنه وضعها فى مكان ما بعيد آمن طول الوقت. لقد تحايل على القانون وهرب من العقاب، لكنى أود أن أضع أصابعى حول عنقه.

قلت:

- إذا كان هذا ما تشعر به، فأستطيع أن أثق في مساندتك لي. وأول أمر أريده منك أن تأتي وتعيش معي في شقتي. والله وحده يعلم ما قد يحدث بعد ذلك، ورجلان أفضل من رجل واحد. وأقول لك بصراحة إنني لا أحب فكرة مواجهة خطر جديد بمفردي.

ولم يعترض تشايمان. وذهبت معه إلى شقته، حيث جمع أشياءه في حقيبته، ثم عدنا إلى شقتي. وكان منظر بدنه القوى العملاق ووجهه الأحمر المحبب للضحك راحة عظيمة لي في الظلام الغامض الذي وجدت نفسي أمشي فيه الآن.

وهكذا بدأت في القيام بالأعمال المنزلية مع تشايمان مشاركة، وكانت فترة من أغرب فترات حياتي. وكان أفضل زميل في الدنيا، لكني وجدت أني كنت أسيء فهم شخصيته. وعندما تراه في المنزل فقد تعتقد أنه قطعة من حجر صلد، راسخ، مفعم بالفطرة السليمة.. كان لديه كل ذلك في مكان ما داخله، لكنه كان في أمور كثيرة مثل مجرد صبي صغير. كان مبتهجاً مسروراً لما تعد به حياتنا من مخاطر ومثيرات. وكانت أية فرصة قتال حقيقي... لا معارك كلامية في البرلمان... كمنظر الطعام لرجل جائع بالنسبة له.

وجعلني أتوجّع من كثرة الضحك. وجعلته فكرة إننا مطاردين حانقاً بشكل فظيع. لم أكن أعتقد أنه مراقب من أحد، مثلما كنت، لكنه اعتقد أن أحداً يقتفي أثره، وهاجم العديد من الناس المسالمين في أوقات مختلفة. وأصبح هذا بشكل إزعاجاً تاماً، ووقعت مشاحنات بيني وبينه بخصوص ذلك. بل حتى أراد أن يشك في خادمي والترز... رجل كان أبوه خادماً لأبي.

وقال إحدى الليالي:

- إنك لا تأخذ هذا الموضوع بالمأخذ الذي يجب. ما فائدة انتظارك لهؤلاء الشياطين حتى يخذلوك؟ دعنا نخرج ونطرحهم أرضاً.

وأضاف أنه ينوي الذهاب لمراقبة لوملي في عقر داره. وحاولت، بدون جدوى، أن أمنعه.

كل هذا جعله يهمل عمله في المجلس.. بالطبع لم ير لوملي أبداً. وكل ما حدث أنه كاد أن يقبض عليه أكثر من مرة لتدخله في شئون المارة المسالمين في منطقة بيكاديللي والشوارع المجاورة.

وذات ليلة رأيت في طريقي للبيت من المكتب في صحف المساء أنه قد تم القبض عليه. فخشيت في البداية أن يكون قد

تورط في مشكلة خطيرة، وارتحت كثيراً عندما وجدته في الشقة بعد عودتي. وكان في حالة غضب شديد. يبدو أنه قد وجد شخصاً اعتقد أنه لوملي، لأنه يعرفه فقط من وصفي له. دخل الرجل أحد المحلات، وترك سيارته في الخارج. فسأل تشابمان، كما قال، بأدب السائق عن اسم سيده. فرد السائق بوقاحة، فما كان من تشابمان إلا أن جذبه من فوق مقعده وهزّه حتى كادت أسنانه تسقط. وخرج صاحب السيارة، وقبض على تشابمان وقادوه إلى أقرب مركز شرطة. وكان عليه أن يعتذر ويدفع خمسة جنيهات كغرامة.

ومن حسن الحظ أن صاحب السيارة لم يكن نا حيثية، لكن كانت تشابمان بجدية. وكنت أعلم أنه لا فائدة من شرح الوضع له وأن مواصلة مراقبته السرية لبيت القوة كانت مثل فيل يجري وراء غزال. ثم حاولت خطة مختلفة.

فقلت له:

- ألاترى أنك تلعب لعبة لوملي؟ وسيصطادك إن عاجلاً أو آجلاً في أمر سيدخلك السجن، وأين سأكون أنا؟ وذلك ما يريده هو وأصدقاؤه. إنهم بارعون، ويجب أن نواجه براعتهم بنفس الطريقة. يجب أن نخفض رءوسنا حتى نحصل على فرصتنا.

وسمح لنفسه أن يرضخ، وناولني المسدس الذى كان يحمله، وكان خوف حياتي، وقال:

- وهو كذلك، وساعداً ولخفض رأسي. لكن عدني أن تدعني أحضر القتال الكبير عندما يأتي.

ووعدته بذلك. كانت فكرة تشابمان عن القتال الكبير أن يكون من النوع الذى يستطيع استخدام قوته البدنية ويطرح الناس أرضاً بالعشرات. وأصبح مصدر قلق لي لكنه ما زال الراحة الكبرى. فابتهاجه ومرحه وحديثه المسلي كلها كانت الأشياء التى أحتاجها. وكانت لديه وفرة من الحكمة، أيضاً، وكان يرى أنني يجب أن أنزع عقلي من القضية، وقال إنه سيدربني على ذلك. واعتقد أنه سيفوز في النهاية بواسطة القوة فقط.

كان عريض المنكبين، مفتول العضلات، ولقد كان ملاكماً بارعاً. وكانت ألاكم أنا أيضاً أحياناً قليلة، لكني تحسنت كثيراً تحت رعايته وتعليمه. وحصلنا على قفازات، واعتدنا أن نتلاكم سوياً نصف ساعة كل صباح. وكانت النتيجة أننا غالباً ما نجلس، يواجه كل واحد منا الآخر في أمسيات المجلس ضمن الخصوم الحزبيين، يزيننا سواد عين أو قطع في شفة. وماذا كان يفكر النواب، لا أدرى.

في تلك الأيام كنت أريد كل الراحة التي أستطيع الحصول عليها لأنه كان وقتاً مفيداً بالنسبة لي. كنت أعرف أنني في خطر عظيم، ففي الحقيقة، قد تنتهي حياتي بعنف مفاجئ في أية لحظة. ومع ذلك فليس أمامي أي طريق واضح لأتبعه، ولا شئ أقوم به سوى الانتظار لفرصة تأتي، مع الريبة والخوف من حولي من كل جانب.

واستمرت المراقبة بلاشك في ذلك، رغم أنني كثيراً ما دوخت مقتفي أثري. وفي إحد الليالي اصطدمت في أحدهم في وسط الشارع وتطلع في وجهي بشراهة.

وبعد ذلك بقليل، قابلت ماكجليفراي. لقد سمع شيئاً عن بيت القوة في خطاب لصديق ألماني الذي كان يحقق في مهمة غريبة في النمسا .وتم القبض على كثير من الطلبة الذين يخططون لقلب نظام الحكم، وتم ذكر بيت القوة مرات عديدة في أوراقهم ومنشوراتهم. كما جاء الاسم في أماكن أخرى كثيرة، وكان ماكجليفراي متأكداً، إذا أمكن الكشف عن بيت القوة، لعثر على إنه هو مفتاح لأخطر منظمة سرية في أوروبا، إن لم يكن في العالم. وكان هناك دليل ما على أن كل الأمور كانت تدار من إنجلترا.

قلت:

- ماكجليفراى، لقد عرفتنى لمدة طويلة، وأعتقد أنك تنظر إلى كرجل جاد عملى، لا أختلق قصصاً غريبة. حسن، أعتقد إننى على حافة اكتشاف سر بيت القوة هنا. أريدك أن تعدنى إذا أرسلت لك رسالة عاجلة فى الأسبوع القادم، أن تقوم بتنفيذها، مهما كانت تبدو غريبة. ولا أستطيع أن أقول لك المزيد. يجب أن تثق فىّ، ولدى أسباب وجيهة لأى شئ قد أقوم به.

تطلع إلىّ باندهاش،وقال:

- نعم، أنا أثق فى أنك شخص عاقل ما فيه الكفاية، يا ليذن. ومن الصعب أن أعدك، لكنى سأفعل ما قلته لى.

وفى اليوم التالى وصلتنى أخبار من فيلكس.. لقد تمت رؤية توك ورجل يدعى سارونوف. ولم يكن ذلك عسيراً، فالشرطة الروسية فى تعقبها تومى وبت - هيرون، قد عثرت على رجلين يتبعانهما. ولقد ذهب توك ورفيقه عن طريق سمرقند، بفكرة أن طريق التلال أقصر من الطريق الرئيسى من بوخارا. وتم تحذير شرطة الحدود، والآن أصبح المراقبان أنفسهما تحت المراقبة.

كان ذلك من الأمور الطيبة التى تم تنفيذها، على أية حال.

لقد أنقذت بت. هيرون من أسوأ خطر. في البداية بعثت له نومي والآن وضعت الشرطة في مراقبة أعدائه... وكان تشارلز يعرف الكثير فلن يسمحوا له بالهرب وكما قال تشابمان، فلوك لو روث ليس بالرجل الذي يتردد في ارتكاب جريمة قتل أو جريمتين.

كان شهر يونيو هذا من الشهور الحارة، ولم أكن مشغولاً هكذا في المحاكم من قبل. لكن ذلك العالم المزدحم لم يكن أكثر من حلم بالنسبة لي. وكنت أنجز عملي اليومي، وأتناول العشاء في الخارج، وأذهب للمسرح أحياناً، وأعقد اجتماعات ومناقشات، وأتحدث مع كل أنماط الناس، لكن من حين لآخر كان لدى الشعور بأنني أراقب أحداً آخر غيري يقوم بكل هذا.

كانت اهتماماتي الحقيقية بعيدة. كنت دائماً أرى رجلين في الوديان الحارة لنهر أوكسوس، مع الغبار الناعم المرتفع في سحابات صفراء من ورائهم. كان أحد هذان الرجلان له وجه شاحب قلق، وكان كلاهما في سفر شاق. فكانا يمران على حدائق خضراء من الأزهار والفواكه مروية بمياه نهر أوكسوس، الذي كثيراً ما يتخلى عن اتساعه وبطئه، ليصبح جدولاً سريعاً كالشلال يحيطه الثلج من عل. وتتغير المناظر بسرعة وتعبر جياد



٣ ـ كنت أشعر بالهواء الطلق يهب من فوق سطح العالم

المسافرين منحدرات التلال الخضراء والمزدهرة. وكنت أشعر بالهواء الطلق يهب من فوق بطح العالم(*)، وأرى في المدى البعيد قمم الجبال الثلجية التي تقع الهند خلفها.

وكنت أرى وراء المسافرين اثنين آخرين، ولقد اختار طريقاً مختلفاً، والآن فوق هضاب بلا ماء، ثم في قفار صخرية جرداء. ويسافران أسرع، وطريقهما أقصر. وإن عاجلاً أو آجلاً لابد أن يلحقا بالمسافرين الأولين، وكنت أعرف، ولا أدري كيف، إن الموت سينجم عن هذا اللقاء.

وأنا، وأنا وحدي، الجالس في لندن على بعد أربعة آلاف ميل، أستطيع منع الكارثة. ملأت هذه الصور أحلامي في الليل، وغالباً ما أجد عيني وأنا سائر في بكاديللي أو جالس على مائدة العشاء، مثبتتين بكل وضوح على المفازات المضيئة بالجبال البيضاء المشرقة من خلفها، والنقط الأربع، التي ما هي إلا الرجال، تنطلق مسرعة وراء أهدافها.

وفي إحدى الليالي قابلت لوملي. وكان ذلك في عشاء سياسي كبير أقامه رئيس حزبي.. خمسون أو ستون رجلاً وكثير منهم

(*) الاسم الذي يطلق على جبال آسيا الوسطى.

رجال مشهورون. وجلست قرب نهاية المائدة، وكان هو قرب أولها، جالساً بين جنرال معروف ووزير الخارجية. وسألت جارى من جهة اليمين من يكون.

- إنه لوملي الكبير. ألم تلتق به؟ إنه لا يحضر ولائم العشاء العامة كثيراً، لكنك يمكن أن تراه في الولائم الخاصة... أفضل ما في لندن. إنه ليس بسياسي، رغم أنه يميل لحزبنا ولقد أعطى حزبنا، على ما أعتقد، مساعدات مالية. إنه ثرى بضخامة وكريم جداً وهو أكثر الرجال علماً في إنجلترا. وقال لي رئيسنا أنه الرجل الذي تلجأ إليه في معلومة غريبة تريدها.

فقلت:

- إنه لم يأت ذكره في الصحف.

- لا، أعتقد أنه يدفع لهم ألا يفعلوا، مثل بعض هؤلاء الأثرياء في أمريكا.

وراقبته خلال العشاء. كان مركز الحديث في مقدمة المائدة. وكان جيرانه ينصتون له باهتمام وكيف أستطيع أحياناً سماع صوته المريح في ثغرات لانقطاع الحديث. وكان يبتسم من وراء نظارته الداكنة وأحياناً يخلعها لينظر إلى محدثه. وأتساءل لماذا لم ير أحد ما رأيته في عينيه البراقتين الجامحتين.

كان العشاء، حسب اعتقادى، ممتازاً وكانت الصحبة رائعة، ما عدا عند مقدمة المائدة فلم أستطع الأكل ولم أرد الحديث. وشعرت، هنا فى هذه الحجرة اللطيفة، مع خدم يتجولون فى ارتياح، إن الرجل كان محمياً وآمناً من أى شىء أستطيع القيام به. وملأنى نوع من المقت اليائس عندما تطلعت ناحيته، لأنى كنت واعياً دائماً لتلك الصورة الأخرى... جبال آسيا، ووجه بت - هبرون المقتضى، وشبح توك الفظيع فى أثره. وذلك، وتروس منظمته السرية الكبرى تتحرك فى شتى أنحاء العالم تحت يد لوملى.

وعند مغادرتى، احتككت بلوملى فى بهو الخروج.. فابتسم لى بطريقته الودودة وقال:

- هل كنت تتعشى هنا؟ لم ألحظك!

فتظاهرت أنى أصدقه، وأجبت:

- لديك أشياء أفضل تفكر فيها. على فكرة، إنك أعطيتنى بعض النصائح الطيبة منذ أسابيع مضت. قد يرضيك أن تعرف أنى أخذت بها.

فقال بتؤدة:

- أنا سعيد جداً، إنك شاب حكيم جداً..

لكن عينيه قالتا لي أنه كان يعرف أني أكذب.

• • •

فصل (٦)

مطعم فى شارع أنتيوك

كنت أعمل متأخراً فى مكتبى اليوم التالى، وكانت الساعة حوالى السابعة قبل أن أتأهب للخروج. لقد اتصل بى ماكجليفراى بعد الظهر قائلاً: أنه يريد أن يرانى مقترحاً العشاء فى النادى. فقلت لى إنى سوف آتى إلى هناك من مكتبى مباشرة. لكن فى حوالى الساعة السادسة اتصل ثانية عارضاً مكاناً آخر للقاء.

- لدى أخبار مهمة جداً لك وأريد أن نلتقى فى هدوء. يوجد مكان صغير حيث أتناول العشاء أحياناً... مطعم راباتشينى فى شارع أنتيوك. سأقابلك هناك فى السابعة والنصف.

وافقت وبعثت برسالة لتشابمان فى الشقة قائلاً له إنى سأتناول

العشاء في الخارج. كانت ليلة الأربعاء، لذلك انتهى المجلس مبكراً. وكان تشلبمان في الشقة. فسألني في التليفون أين سأتعشى فأخبرته. وكان يبدو على صوته الضيق، لأنه لا يحب الأكل بمفرده. كانت ليلة حارة ساكنة وكنت قد قضيت يوماً ثقيلاً في المحكمة. مشيت بطول النهر. ووجدت بعض الصعوبة في العثور على شارع أنتيوك، لأني لم أسمع عنه من قبل. كان في منطقة متطرّفة عن وسط المدينة، وتعجبت لماذا اختاره ماكجليفراي، لكني لم أعط الموضوع أهمية كبيرة. لقد قال إنه يريد الهدوء.

كان شارعاً صغيراً محترماً تماماً. وكان مطعم راباتشيني ليس من السهل اكتشافه أيضاً، حيث لم يكن يوجد اسم في أي مكان. مجرد ستارة الباب يقع عليها اسم صاحب المطعم لإرشاد الجوعى.

أعطيت الساقي قبعتي وعصاتي وقادني داخل قاعة عشاء مملوءة بالناس. وكانت فرقة صغيرة تعزف موسيقى خفيفة. والزبائن ليسوا من النوع الذي يتوقعه الإنسان في مثل هذا المكان الصغير. كانوا جميعاً في ملابس السهرة وبعضهم تطلعوا إلي بشكل فضولي عندما دخلت. أعتقد أن المكان قد أصبح عصرياً بالصدفة.

وجاء صاحبه القانى. لعله يسمى نفسه رابانتشيلى على أنه إيطالى، لكنه كان من الواضح عليه أنه ألمانيا.

قال:

- مستر جيلفراى طلب غرفة خاصة. تفضل معى، ياسيدى.

تبعته صاعداً سلما ضيقاً، ثم إلى ممر قصير إلى باب فى نهايته وأدخلنى غرفة مضاءة على نحو متألق، حيث كانت توجد مائدة لاثنين.

وقال صاحب المطعم:

- مستر ماكجليفراى يأتى هنا كثيراً. سيكون هنا حالاً. أتعشم أن تكون راضيا.

كانت الغرفة لا بأس بها، لكنها كانت تحتاج لبعض الهواء المتجدد. واندهشت لأرى أن النافذة مغلقة والستائر مسدلة. فسحبتها فرأيت أن المصراع الخشبى مغلق أيضاً.

فقلت:

- يجب أن نفتح هذا، لنا لانستطيع التنفس هنا فى ليلة كهذه.

فأجاب:

- نعم يا سيدى. سوف أرسل الساقى.

وغادر الغرفة. وأغلق الباب الذى أصدر صوتاً غريباً وجلست على كرسى، شاعراً بالتعب. وكانت توجد زجاجة نبيذ على المائدة مع فتاحة فأبلتها، لكنى لم أحب أن أبدأ قبل وصول ماكجليفراى. والساقى الموعود لم يصل. فبحثت عن جرس، لكنى لم أجد. كنت على وشك أن أصب لنفسى من الزجاجة لأشرب عندما لفت نظرى شىء على منضدة جانبية صغيرة. فمشيت عبر الغرفة والتقطت صورة فوتوجرافية ولم يكن هناك شك فى صاحب الصورة... إنه روث أو ترك.. أيهما تحب.

وبدا أمراً غريباً أن توجد هناك، وبدأت أشعر بالضيق. وطالما لم يأت أحد لفتح النافذة، قررت أن انتظر ماكجليفراى فى الطابق السفلى.

لكن الباب لم يفتح. كان مغلقاً من الخارج وليس ذلك فقط، لكنه كان باباً متيناً جداً، وليس من الأبواب العادية التى ترى فى المطاعم الصغيرة.

وبدأت أشعر بالخوف، وكنت سأصيح طالباً المساعدة عندما تذكرت أنه ليس من اللائق بالنسبة لى.. محام شاب وعضو فى

البرلمان، يصيح طالباً المساعدة في مكان مثل هذا. ماذا سستعتقد الناس، خصوصاً مع زجاجة نبيذ مفتوحة على المائدة؟

مع ذلك كنت بوضوح في فخ من نوع ما. كانت دعوة ماكجليفراى مزيفة، لأنه ليس من الصعب تقليد صوت شخص آخر في التليفون. وحاولت أن أهدئ نفسي، قائلاً: إنه لا يمكن أن يحدث لي أي شئ مع وجود ثلاثين شخصاً يتعشون قريباً مني. وما عليّ إلا أن أرفع صوتي.. لكن ذلك هو ما أريد أن أتجنبه بالإضافة إلى أن الباب ربما يكون قد اخترب. وقد يصل ماكجليفراى في أية لحظة.

لذلك جلست وانتظرت. وكنت سأشرب كوباً من النبيذ عندما تطلعت إلى النافذة. كان يوجد شئ غريب بالنسبة لها. فتفحّصتها عن كثب فوجدتها ليست نافذة على الإطلاق، رغم أنها تقليد جيد. ثم فتحت فجأة تجاه الداخل مثل باب، وخطى رجل داخل الغرفة.

وللصدفة الغريبة كنت أعرفه، فقلت:

- مساء الخير مستر دوكين، هل لك في كوب من النبيذ؟

لقد قابلت بيل دوكين قبل مدة. كان قد قبض عليه في سرقة

منزل، ودافعت عنه. وشعرت ببعض الشفقة عليه، رغم اعتقادي بأنه كان مذنباً. ونجحت في إطلاق سراحه. وكان ممتنّاً جداً في ذلك الوقت.

وظهر على وجهه بالتدريج أنه تعرف علي، فقال:

- يا إلهي، إنه ذلك المحامي.

فأشرت إلى النبيذ، فقال:

- لا مانع عندي أن أشرب.. حسن، هذا في صحتك!

وابتلع النبيذ على الفور ومسح فمه بظهر يده.

فقلت:

- حسن مستر دوكين، أتخشى أن تكون بخير.

وبدأت أبدو هادئاً تماماً بانتهاء الانتظار والريبة.

- لا بأس يا سيدي، لا بأس.

- وما الذي أتى بك إلى هنا؟

- مهمة صغيرة أقوم بها. بعض أصدقاء لي يريدون أن يبعدوك قليلاً، وأرسلوني لإحضارك. ومن حسن حظك إنني

صديق. فلن يكونه هناك حاجة لأية... مضايقات.

فسألت:

- وإلى أين من المفروض أن تأخذني؟

- لا أدري. تحت في مكان ما عند النهر. وتوجد سيارة في انتظاري خلف المنزل.

فقلت معترضاً:

- لنفترض أني لا أريد الذهاب؟

- إنك لن ترفض يا سيدي، أرجوك. فأنت رجل عاقل، وإذا وصلت المسألة للعراك، فسأطرحك أرضاً فوراً. ويمكنك أن ترى ذلك.

فأجبت:

- إنك مجنون لتتحدث بهذا الشكل. وماذا عن الناس الذين يعيشون في الطابق السفلي؟ وإذا رفعت صوتي فستأتي الشرطة.

- إنك لأحمق. هؤلاء الناس الذين في الطابق السفلي كلهم في اللعبة. وإذا نزلت تحت الآن، فلن تجد أحداً منهم. لقد تم ترتيب كل شئ لإحضارك إلى هنا دون أن تشك في الفخ.

وأدركت كل شئ على الفور، ولعنت نفسي وحماقتى. إذا أبعدنى لوصلى عن الطريق، فسيكون نجح جزئيا، على أية حال، وليس كلية، لأنى وضعت فيلكس وراء توك، ويبدو أن بت - هيرون وتومى سيتم إنقاذهم. لكن بالنسبة لى فالوضع يبدو فى سواد الليل. فكلما نجحت خططى، لزداد انتقام بيت القوة منى.

وعملت ما فى وسعى لأظل هادئا، وقلت:

- مستر دوكين. لقد صنعت فيك معروفا ذات مرة. ولولاى لكنت فى السجن الآن بدلاً من شريك النبيذ مثل أى شخص محترم. ولا أعتقد أنك من النوع الذى ينسى الصديق.

- لا، لا يمكن أن أنسى. والرجل الذى يقول هذا يكون كاذباً.

- حسن، وها هى فرصتك لإثبات ذلك، وتسدد دينك. فالرجال الذين استخدموك هم أعدائى، ويريدون قتلى. إنك أقوى منى، ومن السهل أن تسحبنى. لكنك إذا فعلت، فسوف تأخذنى إلى حتفى، تذكر ذلك. هل ستفعل ذلك فى الرجل الذى كان صديقاً طيباً لك؟

فتحرك خطوة ثم رجعها ثانية، لا يدرى ماذا يفعل ثم تناول كوباً آخر من النبيذ. وقال أخيرا:

- لا أجـرؤ أن أدعك تذهب يا سـيـدي. فـهـؤلاء الذين استخدموني قد يقطعون حلقي حالما يروني. وفوق ذلك، ما الفائدة التي ستعود إليك لوتركتك تذهب؟ فسيأتي شخص آخر غداً ويقوم بنفس العملية. إنهم لن يزنوك، هكذا قالوا لي. مجرد أن يسكتوك لفترة. تعال ياسيدي.

قلت:

- إنك خائف منهم.

فقال موافقاً:

- نعم، خائف تماماً. وإذا عرفتهم ستخاف مثلي. لا أجرؤ أن أعود إليهم وأقول إنك هربت.

وأخذ كوباً آخر، وبدا أنه يشاور عقله، ثم قال:

- هيا تعال الآن يا سيدي وكن رجلاً رياضياً.

وبدت عيناه زائغتين وتثاءب بعمق.

عندئذ بدت ضجة عظيمة تحت. وسمعت صوتاً يصيح عالياً، ثم نادى على اسمي:

- ليدن! ليدن! هل أنت هنا؟

إنها لهجة يوركشير الطيبة لا ريب.. لقد تبعني تشابمان بشكل أو بآخر، وكان يسبب ازعاجاً في الطابق السفلي.

فقفز قلبي براحة مفاجئة ،وصحت:

- أنا هنا... فوق... في الطابق العلوي. اصعد، وأخرجني!

ثم التفت بابتسامة إلى بيل دوكين، وقلت:

- لقد وصل أصدقائي. لقد تأخرت. ارجع وقل لسادتك ذلك.

كان مترنحاً على قدميه وهو قادم نحوي، وقال:

- هيا تعال. بالله، إنك تعتقد أنك هزمتني. سوف نرى.

وازداد صوته ضخامة، وقال وكأنه مصاب بدوار:

- ماذا حدث لي بحق الشيطان؟ إنني غير طبيعي. رأسي...

كان مثل رجل في حالة سكر شديد، لكن ثلاثة أكواب من النبيذ لن يكون هذا تأثيرها على بيل. وفهمت حكايته. إنه لم يكن مخموراً، بل مخدراً. وصحت قائلاً:

- إنهم خدّروا النبيذ. لقد وضعوه لي لكي أشربه حتى أنام.

هناك دائماً ما يسمى القشة الأخيرة لأي رجل ،وهي التي

فصمت ظهر البعير... قد تهين أي رجل وتعامله بصلافة وسيتحملك بصبر، لكن المس طرف هذا العصب من مزاجه فسوف ينفجر. وبدا أن تحذير بيل كان أمراً إذاً لا يغتفر. فزاغ بصره للحظة وتقوس كتفاه وزأر مثل وحش كاسر، وصاح:

- حذّروني، بالله! من فعل هذا؟

- الرجال الذين حبسوني في هذه الغرفة. اكسر الباب، هشّمه وستجدهم.

فاستدار بوجهه الغاضب إلى الباب المغلق وألقى بوزنه الثقيل عليه. فتصدع وانثنى لكن القفل ما زال كما هو. واستطعت أن ألاحظ النوم يتغلب عليه، وأن أطرافه تزداد صلابة، لكن غضبه كان لا يزال مشتعلاً من أجل مجهود آخر. فانكمش على نفسه ثانية مثل قط كبير ورمى بنفسه على اللوح الخشبي. فترنح هذه المرة وسقط للأمام داخل الممر في سحابة من الجص، والغبار، وقطع الخشب المهشمة.

وكان آخر مجهود لمستر دوكين. إذ ذهب للأمام مع الباب ورقد الآن فوق الحطام، فاقد الوعي. لقد هزمه المخدّر..

التقطت من منضدة جانبية زجاجة نبيذ غير مفتوحة..

فكانت السلاح الوحيد المتاح... وخطوت فوق جسده. وبدأت أستمتع بنفسي بشكل مدهش.

وكما توقعت، كان هناك رجل في الممر، شاب صغير في ملابس ساقي. وإذا كان معه مسدس، لكنت انتهيت، لكن لا أعتقد أن صاحب المكان كان سيسمح بأي طلق ناري، فالصوت قد يلفت الانتباه.

كان معه سكيناً، لكنه لم تأته الفرصة لاستخدامه. فزجاجة النبيذ التي في يدي نزلت على رأسه وتساقط كالحجر.

كان هناك رجال صاعدون السلم.. وليس تشابهان، لأني مازلت أسمع صياحه في قاعة العشاء. وإذا صعدوا فعلاً، فقد يجبروني على الرجوع إلى تلك الغرفة الفظيعة من خلال الباب الذي نفذ منه دوكين. وفي غضون خمس دقائق سأكون في سيارتهم المنتظرة.

ولم يكن هناك إلا شيء واحد للقيام به. فقفزت من قمة السلم إلى أسفل بينهم. أعتقد كانوا ثلاثة ونزولي أوقعهم جميعاً. وتدحرجنا سوياً بعضنا فوق بعض إلى قاعة العشاء، حيث صدمت رأسي في إحدى قطع الأثاث.

وتوقعت التحام بالأيدي، لكن لم يأت أحد. فنهضت على قدماي ببعض الصعوبة، ورأيت الرجال الثلاثة يركضون صاعدين السلم. وكان تشايمان يتحسس عظامي ليكتشف إذا كان يوجد كسر. ولم يكن يوجد شخص آخر في الغرفة فيما عدا شرطيين، كانا داخلين من الشارع.

وكان تشايمان أحمر الوجه لاهث الأنفاس، ومعطفه ممزقاً من الكتف، لكن وجهه كان في سعادة الأطفال.

أمسكت ذراعه وقلت له في أذنه:

لابد أن نخرج من هذا المكان في الحال. كيف يمكننا التخلص من هذين الشرطيين؟ لا داعي لوجود استجواب لو أي شخص في الصحف. هل تسمعني؟

قال تشايمان:

- تمام، هذان الشرطيان أصدقاء لي من يوركشير. ففي طريقي إلى هنا قلت لهما إني قد أحتاجهما، لذلك جاءوا ورائي، لكن بعد فترة حتى لا يفسدا علي قليلاً من الرياضة. لقد استمتعت بعشر دقائق ضرب في بعض الأجانب. ويبدو أنك قمت ببعض القتال أنت أيضاً.



٤ ـ كان تشابمان يتحسس عظامي ليكتشف إذا كان يوجد كسر

قلت:

- دعنا نعود للبيت أولاً.

لأنني بدأت أفكر في المهمة الأكبر.

وكتبت ملحوظة لماكجليفراى وطلبت من شرطي منهما أن يأخذها إلى سكتلانديارد. وكانت عن طلبي بأن يحفظ موضوع المطعم، وخصوصاً، ألا يتسرب شيء إلى الصحف. وطلبت من الشرطي الآخر أن يقوم بحراستنا حتى البيت. وكان طلباً غريباً على رجلين قويين في أمسية صيف لا تزال عامرة بنور الشمس وفي أزحم مناطق لندن، لكنى لم أشأ أن أجازف بأدنى حد. فلقد أعلن بيت القوة الحرب على، وكنت أعلم أنها ستكون حرباً بلا رحمة.

وكنت كالمحموم للخروج من ذلك المكان. ورغبتي للنزال قد اختفت، وكل حجر في ذلك المبنى بدا مثل نذير. كان تشابمان يحب أن يقضي ساعة سعيدة في تنقيب المكان، لكن الجدية المرسومة على وجهي حثته على الخروج.

الحقيقة، أنني كنت مندهشاً، لأني لم أستطع فهم سبب هذا الهجوم المباغت. لقد علم لوملي من رجاله، ولابد من فترة،

يصلني بعملية بوخارا. وكانت زيارتي للسفارة وحدها دليلاً كافياً. لكن الآن لابد أنه عثر على شيء جديد، شيء قد أدهشه، أوربما وقع شئ خطير في توركستان.

لن أنسى لا أنسى تلك المشية للبيت. كانت أمسية من أمسيات شهر يونيو الجميلة ولم تدخل العتمة بعد. وكانت الشوارع مكتظة بالجماهير العادية، فتيات المحلات، الكتبة، السياح، الكل في طريقه يسير. ويمكنك أن تقول إنه أكثر الأماكن أمناً في الدنيا. لكنني كنت سعيداً لأن رجل شرطة يسير معنا. وعند نهاية منطقته، قام بتسليمنا إلى الشرطي التالي، وكنت في نفس الوقت سعيداً بتشابمان. إنني على يقين أنني ما كنت وصلت للبيت وحدي.

لم توجد أى إشارة لإزعاج حتى وصلنا إلى شارع أكسفورد. عندئذ بدأت ألاحظ وجود أناس حولي يعرفون كل شئ عني، لاحظت ذلك في البداية عند إحدى نواصي الشوارع الجانبية المظلمة. إذ وجدت نفسي منعزلاً ببراعة عن تشابمان وأُدفع داخل منطقـــة الظل، لكنني لاحظت ذلك في الوقت المناسب فشققت طريقي بجهد عائداً إلى جانبه. ولم أتمكن من تحديد الناس الذين كانوا يدفعونني. ويبدو أنهم كانوا من جميع الأشكال.

حدث هذا مرتين، فأصبحت حريصاً، لكنني حُبست في

منتصف الطريق عند نهر الشارع تقريباً. وكانت مقدمة أحد المحلات يعاد بناؤها، فكان أمامها الحاجز الخشبي المرتفع المعروف وفيه بوابة صغيرة. وعند مرورنا عليها. جاءت جمهرة خاصة في الممر، فوجدت نفسي مدفوعاً على البوابة، التي انفتحت فجأة، وإذا بي مضغوطاً في الداخل. وكنت قد أصبحت في الداخل بالفعل قبل أن أدرك خطري، ثم أغلقت البوابة. وجاء أناس عديدون هناك في الظلام المتزايد.

لم يكن هناك وقت لكبرياء زائف. فصحت على تشابمان، وفي اللحظة التالية كان كتفاه العريضان في الفتحة، وسحبني وأخرجني منها. بعد ذلك التحمت ذراع تشابمان بذراعي، لكني لم أشعر بالأمان حتى أصبحت في الشقة والباب موصد.

فمددت جسمي على كرسي مريح، لأنني كنت متعباً وكأنني قد لعبت مباراة كرة قدم قاسية، وقلت:

- إنني مدين لك بالكثير يا تشابمان. أعتقد أني يجب أن ألتحق بحزب العمال بعد هذا. ما الذي جاء بك لتبحث عني؟

وكان التفسير بسيطاً. عندما ذكرت اسم المطعم في مكالمتي التليفونية، فلقد أيقظ الذاكرة في عقله. ولم يستطع أن يتذكر في

البداية، لكنه وعى فيما بعد أن المكان كان له علاقة بقضية روث. إنه المكان الذى عمل فيه روث عندما كان فى لندن. وحالما تذكر هذا، استقل سيارة أجرة ونزل على ناصية الشارع، حيث التقى، لحسن الحظ، بصديقيه من يوركشير.

وقال إنه دخل المطعم ووجده خالياً، فيما عدا ما يدّعى بالمدير، الذى قال: أنه لا يعرف شيئاً عنى. عندئذ خطر له أن يتأكد من ذلك فصاح منادياً على اسمى. بعد ذلك ألقى بالمدير على الأرض، فهجم عليه عدة رجال ولوا بعدها الأدبار إلى الغرفة. وقال، إنهم كانوا أجانب، لأنهم كانوا يحملون سكاكين، لكن ذلك لم يؤثر على تشابمان، الذى التقط منضدة صغيرة واستخدمها كسلاح دفاعى.

وقال، ضاحكاً:

- أنا لم أستمتع بأى شئ بهذا الشكل منذ أن كنت تلميذاً فى المدرسة. كنت بدأت أعتقد أن بيت القوة الذى تقول عليه لا وجود له، لكن ظهر على حقيقته الليلة. وهذه فى رأيى هى الحياة!

ولم أشعر بالسعادة التى كان يشعر بها تشابمان إزاء ما حدث.

والحقيقة إنني كنت متحيراً أكثر مني خائفاً. لماذا أرادوا وقوع هذا الهجوم المفاجئ علي؟ إما أنهم يعرفون أكثر مما أتوقع، أو أنني أعرف أقل من المفروض.

فقلت:

- لا أدري كيف سينتهي هذا، إننا لا نستطيع الاستمرار هكذا طويلاً، فإن عاجلاً أو آجلاً، وربما خلال ساعات قليلة، سيقبضون علي.

وقمنا بتحصين أنفسنا جيداً في الشقة وحسب طلبه، أعدت لتشايمان مسدسه ثانية.

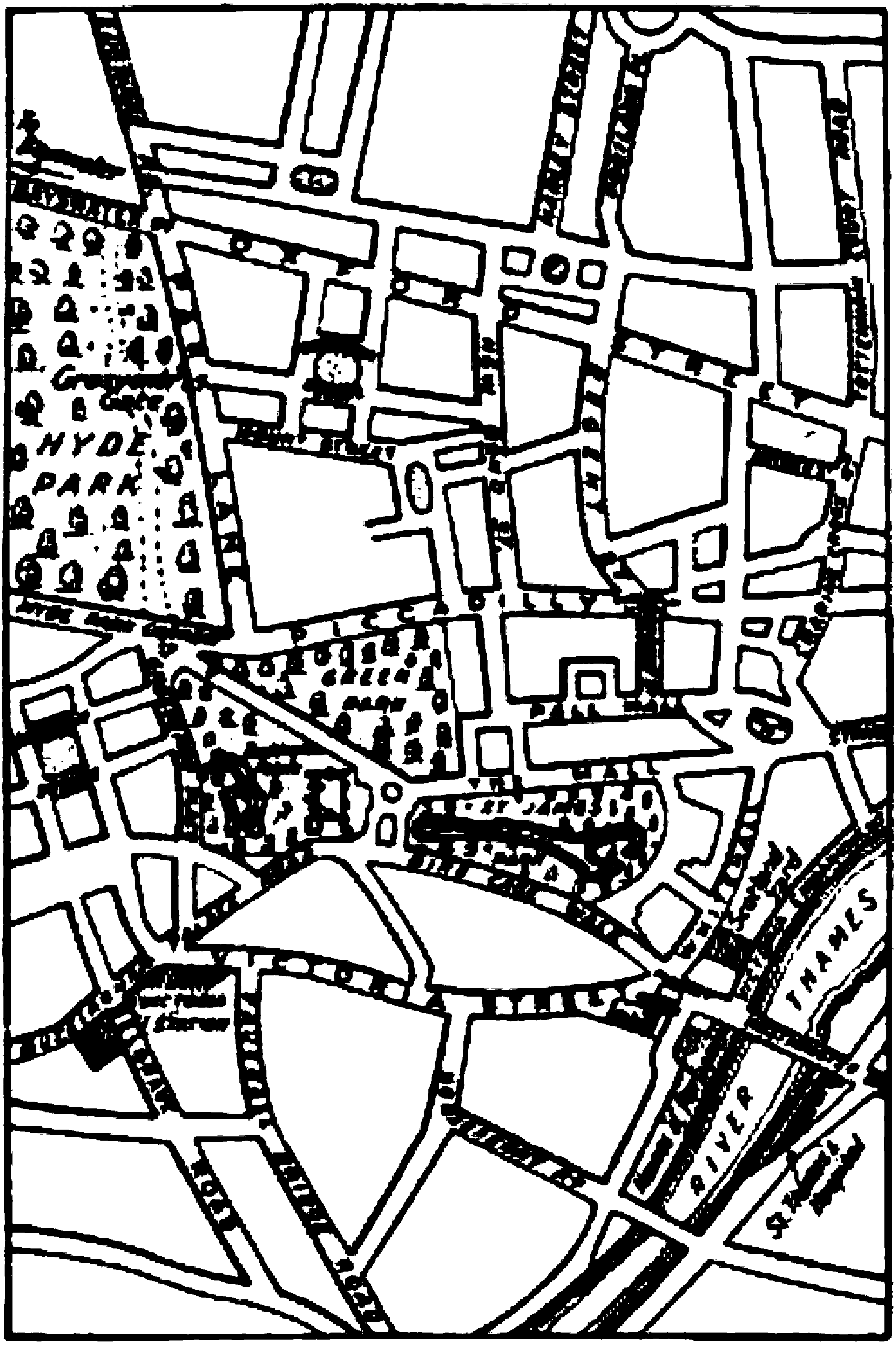
ثم حصلت على الخبر الذي كنت في انتظاره. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة، عندما رن جرس التليفون، وكان فيلكس هو المتحدث. وقال:

- عندي خبر لك. الصيادون التقوا بالفريسة، وأحد الصيادين مات. والآخر سجيناً في أيدينا. ولقد اعترف.

كان هدفهما جريمة قتل شنعاء. لقد تتبعت الشرطة الروسية الرجلين، اللذين التقيا بتومي ويت - هيرون في وادي صغير. تكلم الأربعة سوياً لبرهة، ثم أطلق تومي النار مباشرة على تشارلز،

ولحسن الحظ لمست أذنه فقط. ثم هجم تومي على توك وألقى المسدس من يده. فحاول توك الهرب، لكن طلقة بعيدة من رجال الشرطة الذين كانوا على جانب التل قد أصابته في رأسه، ومات في الحال. وطرح تومي المدعو سارونوف أرضاً، وقام الرجل بتسليم نفسه. وقال فيلكس، إنه قد اعترف، لكن ماذا قال في اعترافه فهو لا يدري.

* * *



٥ - خريطة لندن

فصل (٧)

عثوري على الأمان

وبهذه الأخبار زالت على حيرتي. لقد فزت بالجولة الأولى، وسأفوز بالأخيرة، إذ فجأة أصبح من الواضح لي أن لدى الآن دليل ضد لوملي. وكمحام، فلا أعتقد أنني سأجد صعوبة في إيضاح أنه هو نفسه بافيا، ولقد استلم البرقية من مارونوف، وكان ترك خادمه، وأرسله لقتل بت. هيرون بتخطيط منه، ولا شك أنني أعرف القتيل ولا أستطيع أن أثبت شيئا عن الشيء الكبير، بيت القوة، لكن محاولة القتل تعتبر جناية خطيرة كافية، لقد بدأت أرى طريقي لإنقاذ بت. هيرون. لكن من الطبيعي أن يعتمد ذلك على لوملي فيما لو أعطاني الفرصة لاستخدام معرفتي.

وذلك ما سيكون شاقا. فما عرفته الآن كان لوملى قد عرفه منذ ساعات، ولقد عرفت سبب عملية المطعم فى شارع أنتبوك الآن فقط. وسيحاول بالتأكيد ثانية أن يقفل فمى. يجب أن أبعث بأقوالي للسلطات في أقرب لحظة ممكنة.

وعلى ما أعتقد، ستكون الأربع والعشرون ساعة القادمة مثيرة. لم أكن خائفا، بل كنت في الحقيقة فخوراً بنفسي لأنى فزت بالجولة الأولى، ودل ذلك على أن لوملى لم يكن قويا تماما كما يتخيل، وكانت هذه الثقة في نفسي التى منعتنى من عمل ما كان يجب على أن أعمله. الاتصال تليفونيا بماكجليفراى، وأبلغه الخطوط العريضة لقصتى وأطالب بحماية الشرطة وأعتقدت إنى بلغ ما فيه الكفاية لأرى الأمر بنفسي.

لابد أنها نفس الثقة التى منعت لوملى من القبض على تلك الليلة. فمنظمة مثل منظمته كان بمكنها، وبكل سهولة أن تهجم على الشقة وتقتلنى وتقتل تشابمان أيضا. ربما لم يكن يعرف مقدار علمي. ولعل هذا وارد، وإلا كان اتخذ الخطوات الضرورية في اسكاتى أنا وتشابمان على الفور.

سهرت منكبا على كتابة أقوالى. وعملت نسختين واحدة لماكجليفراى وأخرى لفليكس، وذلك لأنى أردت تجنب مخاطرة ضياع أو سرقة واحدة منهما. وجاء خادمي واترز في السابعة

صباحا (كان ينام خارجا)، وأيقظني. كانت عملية الليلة السابقة تبدو كالحلم. فكنت في روح عالية وأنا أرتدي ملابسي وأتناول الإفطار.

وقلت لتشابمان أن يأخذ النسخة الأولى من أقوالي لسكالنديارد، ويطلب مقابلة ماكجليفراى، ويضعها بين يديه ثم لابد أن يتصل بي تليفونيا في الشقة ويبلغني أنه قد قام بهذا. كما قد اتصلت بمكتبي من قبل وأبلغتهم بأنني لن أحضر ذلك اليوم.

يبدو شيء سهل قطع مسافة أقل من ميل في أزحم منطقة من لندن في ضوء النهار وأداء عملية بسيطة مثل حمل خطاب. لكني كنت أعرف أن وكلاء لوملي قد ينشطون ويتبعون تشابمان. وقد يحاولون العنف فضحك تشابمان على ذلك، وقال:

ـ أرني فقط الرجل الذي يتجاسر ويهجم على فساجعله يأسف لليوم الذي ولدته فيه أمه.

وصمم تشابمان على المشي، وحمل الخطاب في جيبه الداخلي. وبعد الليلة الماضية، أصبح على استعداد أن يقاتل أي شخص.

وبعد ما رحل، انتظرت، متوقعا منه رسالة في خلال نصف ساعة. ومرت نصف الساعة، ثم ثلاثة أرباع الساعة، ولم يحدث

شيء. وعندما مرت ساعة اتصلت بسكتلنديارد، لكنهم لم يروه.

فأصبحت قلقا بشكل بائس، لأنه من الواضح أن كارثة ما قد حدثت لرسولي. فكرت في البداية أن أخرج للبحث عنه، لكني تحكمت في نفاذ صبري على قدر الإمكان لحوالي ساعة، ثم اتصلت بي على الساعة الثانية عشرة وبضع دقائق مستشفى سانت توماس.

تكلم طبيب شاب، وقال إن مستر تشابمان قد طلبت منه أن يخبرني بما حدث. لقد صدمته سيارة عند ناصية شارع هويتهول (شارع الوزارات)، ولا شيء خطير، مجرد رعشة وجروح طفيفة في الرأس، وبعد يوم أو اثنين سيستطيع مغادرة المستشفى.

ثم أضاف ما سحب الدم من قلبي، قال:

– وأرادني مستر تشابمان شخصيا أن أبلغك، بأن الخطاب قد فقد.

ـ ما.. ماذا تقصد؟

ـ قال أنه يعتقد أنهم أثناء ما كانوا يساعدونه ليقف على قدميه، سرق الخطاب من جيبه. وقال إنك ستعرف ما يقصده.

أعرف بالطبع ما يقصده. لقد حصل لوملي على أقوالي،

وأدرك بالضبط كم كنت أعرف وما الدليل الذى عنده. ومن قبل، كان يشك فقط، أما الآن فهو يعرف. ولا بد أنه يعرف أيضا، بوجود نسخة فى مكان ما أحاول أن أسلمها. إن توصيل أقوالى إلى الآذان المطلوبة ستكون أصعب مما قد تصورت، ويمكن أن أتوقع أى نوع من العنف من أعدائى.

ورسخت فكرة الخطر فى عقلى. فأغلقت باب الشقة من الخارج، واتصلت بالجراج حيث أحتفظ بسيارتى، وأبلغت سائقى ستاج أن يأتى إلى فى الساعة الثانية. وجلست محاولا نسيان الأمر كله. لأن التفكير لن يجدى.

وخطر فى ذهنى أننى يجب أن أتصل بفيلكس، لأحيطه علما بالموقف، لكنى وجدت التليفون لا يعمل، فلعل هناك تلفا فى الأسلاك. ولم أكن أستطيع الكتابة، وها أنا لا أستطيع الاتصال تليفونيا. لقد حدث ذلك فى النصف ساعة الأخيرة، ولا أعتقد أنه كان مصادفة. كذلك رجلى والترز الذى قد أرسلته بعد الإفطار لأمر ما، لم يعد حتى الآن. كنت مثل الجيش المحاط بالأعداء، بدون إمكانية الحصول على مساعدة أو حتى الاتصال.

كان يوما فظيع الحرارة. وكانت عربات المياه مشغولة فى بيكاديللى، وبالنظر من نافذتى استطعت أن أرى أناس فى ملابسهم الجميلة يقومون بمشيتهم الصباحية. وعربة زهور مليئة

بالورود تقف تحتى فى الشارع، وشذاها يتصاعد إلى إنها لندن المألوفة التى أعرفها جيدا، ومع ذلك وحيدا بشكلها، ولا وسيلة للحصول على مساعدة، وإذا لم أحصل عليها، فقد يكون معنى ذلك الموت.

كنت بارد الأعصاب بما فيه الكفاية حاليا، لكنى لا أستطيع أن أقول إننى لم أكن قلقا. ولعنت نفسى الزائفة فى الليلة الماضية. كان المفروض الآن أن يكون ماكجليفراى ورجاله بجانبى. ترى، والحال هكذا، هل سأراهم ثانية.

غيرت ملابسى وتغديت بعضا من اللحم والخبز الذى وجدته فى المطبخ، وعند الساعة الثانية بحثت عن ستاج وسيارتى وكان متأخرا خمس دقائق، وهو أمر لم يحدث من قبل. لكنى لم أرحب بأى شيء بمثل هذه السعادة عند رؤيتى لتلك السيارة فلقد كنت قاطع الأمل فى وصولها لى.

وخططت أن أذهب إلى السفارة فى ميدان بلجريف، لكنى كنت أشعر يقينا أننى إذا حاولت الذهاب إلى هناك مباشرة، فسأشارك نفس المصير مثل تشايمان بل أسوأ، لأنهم لن يأخذوا منى مجرد خطاب فقط. وما قد كتبته مرة يمكننى أن أكتبه مرة أخرى، وإذا رغبوا فى التأكد من سكوتى، فلا يوجد إلا وسائل العنف لعمل هذا. وقررت أن أخدع من يتبعنى بالقيام بلفة طويلة

حول المناطق الغربية من لندن، عائدا إلى السفارة عندما أشعر بالأمان بالاقتراب.

كانت راحة عظيمة أن أنزل السلالم وأخرج في ضوء النهار الحار. أمليت أوامرى على سناج واضطجعت داخل السيارة المغلقة بشعور قلق غريب بأن شيئا ما سيحدث. لقد بدأت المرحلة الأخيرة من المعركة. كان يوجد رجل على ناصية شارعي بدا يتطلع للسيارة عن كثب. لا شك في أنه أحد مراقبيّ.

سرنا في اتجاه باركر لين ومنه إلى إدجوار رود منحرفين للغرب خارج لندن، وذلك حتى نقوم بعمل دائرة حولها إلى الشمال. والآن بعد أن ارتحت في جلستي بالسيارة شعرت بأمان أكثر، بل شعرت حتى بالنعاس. وملأ بصرى ظهر سناج العريض كما حدث منذ أسبوعين على الطريق الغربي، ولاحظت مرة أخرى اللون الأحمر الطوبي لعنقه، لقد كان في الجيش وهذه علامة من إصابته برصاصة عليها. لقد أخبرني قصتها.

وفجأةً فركت عيني، لم تكن توجد علامة على عنقه إطلاقا! لكنه كان مثل سناج بالضبط، ويتكلم مثل سناج بالضبط، لكنه ليس سناج الذي يقود سيارتي الآن.

سحبت السيارة عبر النافذة الأمامية، وكأنني لأحمي نفسي من

شمس بعد الظهر. ونطلعت للخارج، فرأيت أننا قطعنا بعض المسافة في شارع ادجوار رود، وكنا قرب تقاطع طرق كبير. وأصبحت فرصتي الآن وإلا فلا، لأنه عند الناصية، يوجد دائما توقف في المرور.

هدأت السيارات من سيرها إطاعة ليد رجل الشرطة المرفوعة، ففتحت الباب الذي في جهة اليسار برفق. كانت السيارة جديدة، لذلك فُتح الباب بدون صوت، وخرجت في ثوان، وأغلقته ثانية، وركضت بين عربة وأتوبيس إلى ممر المشاة. وألقيت بنظرة خاطفة للخلف فرأيت السائق غير الواعي لا يزال جالسا أمام عجلة القيادة، وعيناه على رجل الشرطة الذي أمامه.

انزلقت بهدوء عبر الزحام على ممر المشاة، ويدي على جيبي لأتأكد من أن ورقتي لا تزال موجودة. كان يوجد محل صور صغير قريب كنت أذهب إليه أحيانا، يملكه رجل ماهر جدا في تنظيف الصور القديمة. كنت قد تعاملت معه، وكان يتردد إلي. لذا جريت إلى دكانه الصغير، فوجدته منهمكا في فحص بعض الصور المتربة.

فحياني بطريقة لطيفة وتبعني إلى الغرفة الخلفية.

وقلت:

ـ مستر ليفيسن، هل لديك باب خلفى؟

فنظر إلى فى إندهاش، وأجاب

ـ لماذا، نعم يوجد باب على الزقاق فى الخلف، وهو موازٍ لشارع ادجوار رود.

ـ هل تسمح لي باستخدامه؟ هناك صديق بالخارج أرغب فى أن أتجنبه. هذه الأمور تحدث، تعرف.

فابتسم بطريقة ذكية، وقال:

ـ بالتأكيد يا سيدى، تعال من هنا

وقادنى عبر ممر معتم ملىء بالصور إلى باحة صغيرة وهناك فتح بابا فى الحائط، فوجدت نفسى فى زقاق ضيق وسمعت صوت جرس الباب يرن. وقلت:

ـ إذا سألك أحد، فأنت لم ترنى هنا، تذكر. وابتسم مستر ليفيسون موافقا. كان فنانا بطريقته البسيطة وأحب رائحة الغموض.

جريت قاطعا الزقاق مارا بعدد من الشوارع المتقاطعة ثم اتجهت إلى بيزواتر. واعتقدت أنى أبعدت من يراقبونى عن رائحتى حاليا، لكن لابد أن أتجه إلى السفارة، وبالتأكيد إنها

مراقبة بإحكام. فاتجهت إلى هايد بارك كورنر، لأنها منطقة إزدحام في هذا الوقت من النهار، وكنت أشعر بأمان أكثر وسط الزحام عن الشوارع الخلفية الخالية.

وأسرعت عبر المتنزه، لكنى خرجت عند جروزفنرجيت ثانية وعاد لى الشعور ثانية بأنى مراقب. ولاحظت رجلا يتطلع إلىّ بشغف من الجانب الآخر من الشارع، ويبدو أنه أعطى إشارة لشخص آخر بعيدا عنه. ولم يكن بينى وبين السفارة إلا ربع ميل فقط، لكنى رأيت أنه سيكون مضمارا صعبا لقطعه.

وعندما دخلت بيكاديللى، لم يعد هناك شك إزاء من يراقبونى، كان لوملى يقوم بالأمر على وجه صحيح هذه المرة ليلة أمس كانت مجرد محاولة تجريبية، لكن الآن كانت قواته تعمل كلها. كان المكان مكتظا بالزحمة العادية، والتقيت بأناس أعرفهم مرة أو مرتين. فرأيت في نافذة أحد النوادى صديقا لى، كان يكتب رسالة لكنه لم يكن على ما يبدو يعبأ بما يكتب على الإطلاق. كنت على استعداد أن أعطى الكثير مقابل شعوره، لأن حياتى كانت فى تلك اللحظة قلقة بشكل مؤلم. كنت وحيدا فى ذلك الزحام، ولا توجد أى مساعدة إلا فى عقلى أنا شخصيا. وإذا تكلمت مع أحد رجال الشرطة، لظننى مخموراً أو مجنوناً، ومع ذلك كنت على حافة الهاوية، لن يقبض على أو أقتل ربما.

والآن رأيت كم هي هشة حصانة الحضارة. حادث وسيارة إسعاف مزيفة.. وربما قبض مزعوم من قبل رجل شرطة كاذب، فهناك عشرات من الطرق لاقتناصي بسرعة من الزحام.. ومن الدنيا. ورأيت أنني إذا تأخرت، سوف يزداد الأمر سوءا، لذلك هرعت في الحال عبر الطريق.

وكدت أشارك مصير تشايمان تقريبا. فسيارة كانت تبدو على وشك الوقوف أمام باب أحد النوادي، تحركت فجأة بسرعة عبر الشارع، وكان لا بد لي أن أقفز إلى جزيرة الشارع لتجنبها. وكانت هذه فرصة لأتردد فيها، لذلك، تسللت من أمام أتوبيس وفاديت دراجة بخارية بقيد أنملة، واندفعت عبر المسافة المتبقية ووصلت إلى سياج جرين بارك.

كان هناك أناس أقل، وبدأت أمور غريبة عديدة تحدث فشرذمة من العمال بمعداتهم كانوا يقفون على حافة ممر المشاة، وفجأة تحركوا تجاهي. ومتسول جالس على الممر نهض وجاء في نفس الاتجاه. وكان هناك شرطي عند الناصية، فرأيت رجلا أنيقا يذهب إليه، ويقول شيئا ومشيرا تجاهي، وبدأ الشرطي أيضا يتحرك نحوي.

فلم أنتظر. ولذت بالفرار وركضت ركضة عمري في جروزفنر بليس.

قديما، في المدرسة، كنت بطل عدو، وفزت بسباقات عديدة في أكسفورد. لكنني لم أركض في المدرسة أو في الجامعة مثلما فعلت عندئذ. كان الطقس حاراً بشناعة، لكنني لم أشعر به، وكان قلبي كالجلمود البارد. ولم أتطلع إلى من يلاحقونني، فلم يكن هناك وقت لذلك. ولم أفكر كذلك في منظري، محام معروف وعضو في البرلمان، ويجري في شوارع لندن في يوم من أيام شهر يونيو. ما كنت أعرف إلا أن أعدائي كانوا من حولي وخلفي، ومن أمامي، وعلى بعد مئات قليلة من الياردات تكمن سلامتي.

لكن حتى وأنا أركض كنت أعقل تحركاتي، لأدرك أن الباب الأمامي للسفارة كان مستحيلا. أولاً لأنه قد يكون تحت المراقبة، ثانيا، قبل أن يقوم رئيس الخدم بفتحه، سيكون من يلاحقونني فوقي. كان أملي الوحيد هو الباب الخلفي.

انحرفت داخل زقاق خلف ميدان بلجريف، وعند التفاتي رأيت رجلين يركضان من الميدان ليقطعا علي طريقي. وأطلقت صفارة، وظهر مزيد من الرجال، واحد مندفع يدخل من الطرف البعيد للزقاق، وآخر مندفع من باب منزل، وثالث ينزل من فوق سلم خشبي قائم على لوحة إعلانات. وهذا الأخير كان أقربهم لي وحاول احتجازي، لكنني يسعدني القول: أن لكمة في الفك أرسلته طائرا إلى الأرض.

تذكرت أن السفارة كانت المنزل الخامس من النهاية، فحاولت محصوما أن أعد المنازل من الجهة الخلفية. ولم يكن سهلا كما يبدو، لأن المنازل يختلف شكلها تماما من الخلف، ومن الصعب القول أين ينتهي المنزل وأين يبدأ التالي، وفي النهاية كنت لابد أن أخمن الباب، ولفرحتي، كان غير موصد فاندفعت داخلا وأغلقته من خلفي.

وجدت نفسي في ممر حجري له باب على أحد الجوانب يؤدي إلى جراج. وباب زجاجي في الأمام يفتح على حجرة كبيرة غير مستخدمة مملوءة بالصناديق. وكان هناك باب آخر، في نهاية الممر، فمررت عبره، ونزلت سلما حديديا شديد الانحدار وعبرت ساحة صغيرة. وفي اللحظة التالية وجدت نفسي مندفعا بقوة داخل المطبخ، حيث أصبحت وجها لوجه مع طباخ ذي غطاء رأس أبيض منهمكا في رفع إناء من النار.

كان وجهه أحمر اللون غاضبا واعتقدت أنه سوف يرمي الإناء على رأسي. لقد أزعجته في لحظة دقيقة من عملية الطبخ، ولقد جرحت كبرياءه الفني.

فبدأت باللغة الفرنسية لاهثا:

- مسيو، استسمحيك عذراً لدخولي بهذا الشكل. لقد رفع أمر

جال جعلني أضطر للدخول لهذا المنزل من الباب الخلفي. أنا من معارف سيدك، السفير، وأنا صديق حميم لمسيو فيلكس. أرجو منك أن تتعطف وتقودني إلى حجرة مسيو فيلكس. أو تدع أحداً ما يأخذني إلى هناك.

وبدا أن اعتذاري قد أراحه، فقال:

ـ إنه لأمر خطير، مسيو، يقترب من الجريمة، في الحقيقة، أن تدخل المطبخ في هذه الساعة. مع الأسف، لقد أفسدت تماما الطبق الذي كنت أعده للعشاء.

كنت في حالة يأس لضياع هذا الوقت الثمين، لكني كنت مستعدا لأن أركع على ركبتي إذا كان ضروريا.

قلت:

ـ أنا آسف جدا في الحقيقة، لاصطدامي مع هذا الفن النادر، الذي طالما أعجبت به على مائدة السفير. لكن هناك خطر من خلفي، وعمل عاجل من أمامي، مسيو، هل تغفر لي؟ الضرورة تجعلنا أحيانا نقوم بأشياء لا يجب أن نحلم بإتيانها في أوقات أخرى.

فانحنى لي، وانحنيت له، وعلمت أنه سامحني وفجأة انفتح باب آخر، وظهر رجل. كان من الواضح أنه خادم، لأنه كان

يحاول أن يرتدى معطفا أبيض أثناء دخوله لكنه عند رؤيتى ألقى به. واعتقدت أنى رأيته من بين الرجال الذين كانوا فى الخارج، لأن له شعرا أحمر لا ينسى.

وصاح:

- مسيو، ساعدنى فى القبض على هذا الرجل. فالشرطة تبحث عنه .

قلت:

- نسيت يا صديقى، أن الشرطة غير مسموح لها بالدخول فى السفارات. أريد أن أرى مسيو فيلكس.

فصاح:

- هذه لعبتك إذن، لكنها لعبة تصلح لاثنين. هيا مسيو، أعطنى يدك ، وسنرميه فى الشارع فى لحظة هناك مالنى جنيه فى جيوبنا إذا سلمناه لهؤلاء الذين يريدونه.

بدا الطباخ متحيراً وخائفا قليلا.

قلت:

- هل ستسمح لهم أن يفعلوا هذا فى مطبخك.. مطبخ سفارة.. بدون إذنك؟

فسأل باللغة الفرنسية.

ـ ماذا فعلت؟

فأجبت بنفس اللغة:

ـ ما يوافق عليه مسيو فيلكس فقط. عصابة قتله من خلفي تطاردني.

ما زال مترددا، بينما الخادم ذو الوجه الأحمر يتقدم نحوي كانت يده في جيبه، وكانت ممسكة بشيء.. سلاحا بلا شك.

وكان الآن هو الوقت الذي يجب أن أستخدم مسدسي، لكني طبعا لم يكن معي مسدس، وسمعت صفيرا خافتا من الخارج، وابتسم الخادم لي بطريقة مقيتة، واعتقدت أن كل شيء قد ضاع.

ماذا كان سيحدث، لا أدري، لولا أن الباب قد انفتح وظهر هيونيز، رئيس الخدم.

قلت:

ـ هيوينز، أنت تعرفني.. لقد تعشيت هنا كثيرا، وتعرف أنني صديق لمسيو فيلكس. وأنا في طريقي لرؤيته في أمر عاجل، ولأسباب عديدة دخلت من المطبخ. هل ممكن أن تأخذني في الحال إلى مسيو فيلكس؟

وانحنى هيوبنز، ولم يظهر أى علامة اندهاش على وجهه الوقور الهادىء، وكل ما قاله:

ـ من هنا يا سيدى.

وأثناء اتباعى له رأيت الخادم يسحب شيئا من جيبه. ولحسن حظى أن وكلاء لوملى، لم يكن لديهم الشجاعة دائما فى إطاعة أوامره بالحرف، لأن لا شك عندى أن الأوامر كانت لأخذى حيا أو ميتا.

ووجدت فيلكس وحيدا، فألقيت بنفسى على كرسى مريح، وقلت:

ـ صديقى العزيز، خذ نصيحتى واطلب من السفير أن يطرد الخادم ذا الشعر الأحمر فوراً.

ومن تلك اللحظة شعرت بسيادة على الموقف، وزال الخوف، لقد عشت لأسابيع تحت شبح الخطر، وفجأة سطعت السماء، لقد عثرت على الأمان. ومهما حدث لى الآن، فالأسوأ قد مضى، لأنى قد قمت بما شرعت فى عمله.

كان فيلكس يتطلع إلىّ بفضول، لأنى كنت عارى الرأس، منكوش الشعر، أحمر الوجه من كثرة الجرى وكنت خائر القوى. كان منظراً غريبا، فقال:

- يبدو أن الأمور كانت تسير معك سراعا

- نعم، لكني أعتقد أن السير انتهى، أريد أن أطلب عدة خدمات. أولا: هذه الورقة التي تحمل حقائق عن المهمة. سأتصل بماكجليفراي بسكتلانديارد وأطلب منه الحضور هنا في التاسعة والنصف هذا المساء. وعندما يأتي أريدك أن تعطيه هذه الورقة وتطلب منه أن يقرأها في الحال. وسيعرف كيف يتصرف على ضوئها.

فوافق فيلكس قائلا:

- وهو كذلك، وثانيا؟

- اعطني ورقة لأكتب برقية.. أريد رجلا محل ثقة ليذهب لمكتب التلغراف في الحال ويرسلها.

فناولني ورقة وكتبت برقية إلى لوملي في شقته، قائلاً أنني أقترح زيارته ذلك المساء في الثامنة تماما، وأطلب منه استقبالي.

قال فيلكس.

- وبعد ذلك:

- وبعد ذلك، وأخيرا، أريد حجرة لها باب يمكن قفله، وحماما ساخنا، وشيئا آكله على الساعة السابعة وقد تسمح لي أن أتذوق

الطبق الجديد للطباخ.

واتصلت بماكجليفراي، وذكرته بوعده وأبلغته بما ينتظره الساعة التاسعة مساءً. ثم تحممت، وبعد ذلك أخبرت فيلكس بأحداث اليوم. ولم أشعر أبدا بمثل هذه الراحة التامة، لأنه مهما حدث ، كنت متأكدا أنى قد أفسدت لعبة لوملى. لعله يعرف الآن أنى قد وصلت إلى السفارة، وأن أى محاولة أخرى تجاه حياتى وحريتى أصبحت بلا جدوى، وسديبين له برفيدى أنى على استعداد لتقديم عرض ما، وبالتأكيد سيسمح لى بالوصول لشقته بأمان.

ولم يكن لدى أى خوف لفكرة مقابلتى عدوى، مجرد فضول عظيم، كانت لدى أفكارى الخاصة عن هذا المجرم المتميز، ونشمت أن أقيم عليها الدليل.

وقبل السابعة مباشرة جاءنى رد ليرفيدى . مستر لوملى قال إنه ليسر لمقابلتى. كنت أتخيله جالسا فى شقته، مثل جنرال كبير يستقبل التقارير من ميدان القتال. ومع ذلك، فنابليون قد حارب معركته فى واترلو.

* * *

فصل (٨)

بيت القوة

تركت ميدان بلجريف حوالى الثامنة والربع ومشيت عائدا الطريق الذى كان بعد ظهر ذلك اليوم مكتظا بالخطر والإثارة وكنت لا أزال مراقبا.. فقليل من الملاحظة بينت لى ذلك.. ولكن لن يتدخل فى أمرى أحد، طالما أن طريقى يمضى فى اتجاه معين.

لقد هبّت نسمة عليلة، وازدادت الأمسية برودة لطيفة. عبرت جرين بارك ووصلت بيكاديللى، ملاقيا عدة رجال أعرفهم ذاهبين للعشاء على الأقدام. أصبحت هادئا تماما الآن، ووقفت لألقى التحية إليهم. ولعلهم من ملابسى اعتقدوا لأننى عائد من قضاء يوم فى الريف.

وصلت شقة لوملى والساعة تعلن الثامنة كانت شقته تقع فى الطابق الأول، وكان حضورى متوقعا، لأن البواب دلنى على الطريق وانتظرنى حتى فتح خادم باب الشقة.

كانت حجرة جلوس لوملى كبيرة جدا، وكانت الجدران كلها مكتظة بالكتب المصفوفة من مختلف الأنواع من تلك التى فى مكتبته الفعلية بمنزله الريفى، وكان كل شىء نادرا وثمينا، مجموعة لفنان.

غادر الخادم وأغلق الباب، وفى لحظة أو اثنتين جاء السيد من حجرة داخلية. وكان فى ملابس العشاء، وكان يبدو فى مظهر يفوق ذوى الرتب والمشهورين. انه لوملى الذى التقيت به منذ ليلتين على العشاء، صديق القادة والوزراء، وكان من الصعب التصديق بأنه هو الرجل الذى قد رتب لعملية المطعم، والذى قد أعطى أوامره للرجل ذى الشعر الأحمر بالسفارة، أو بعث بدوك إلى بوخارا. هل هو حقا نفس الرجل؟

وقال بلطف:

- مساء الخير مستر ليدن. طالما أنك؛ قد حددت الساعة الثامنة، هل لى أن أقدم لك العشاء؟

فأجبت:

ـ شكراً لك، لكني قد تعشيت بالفعل.. لقد اخترت وقتاً غير مناسب، لكن مهمتي لن تستغرق طويلا.

قال:

ـ أمكنا؟ إنى سعيد دائما لأراك في أية ساعة .

ـ وأنا أفضل رؤية السيد عن الأتباع الذين قد ضايقوني خلال الأسابيع الماضية.

وضحكنا نحن الاثنين، ثم قال:

ـ آسف أن الأمر لم يكن لطيفا بالنسبة لك، مستر ليدن، لكن لابد أن تتذكر أنني أعطيتك إنذارا عادلا.

ـ حقيقي، ولقد أتيت لأقوم بنفسي المعروف لك. ذلك الجزء من اللعبة ، على أية حال، قد انتهى.

فكرر في اندهاش:

ـ انتهى؟

قلت، مخرجا ساعتي:

ـ نعم، انتهى، دعنا نكون صرحاء مع بعضنا.

مستر لوملي. فليس لدينا وقتاً لنضيعه . حيث إنك قرأت بلا

شك الورقة التي سرقتها من صديقي هذا الصباح، تعرف ما هي المعلومات التي لدي.

ـ دعنا نكون صرحاء مهما كلف الأمر. نعم قرأت ورقتك. قطعة من العمل طيبة جدا، إذا كان لي أن أقول ذلك، إنك ستعلو في مهنتك يا مستر ليثن. لكن بالتأكيد يجب أن تدرك أنها تحملك لطريق ضئيل.

ـ إنك على حق إلى حد ما. فأنا لست في وضع يسمح لي أن أبلغ الشرطة بالمدى الكامل لجرائمك. فبالنسبة لبيت القوة وأفعاله يمكنني أن أخمن فقط. لكن بت ـ هيرون في طريقه إلى الوطن، وسوف تقدم له الرعاية الكافية في تلك الرحلة. ولقد اعترف رجالك سارونوف. وستعرف المزيد قريبا جدا، ولكن من غير كل هذا فلدى الدليل الكافي لاتهامك في دار القضاء بمحاولة جريمة القتل.

ولم يجب، لكني تمنيت لو استطعت أن أرى خلف نظارته المعتمة. أعتقد أنه لم يكن جاهزا تماما لهذا.

وقال أخيرا:

ـ لا حاجة لأن أقول لك كمحام يا مستر ليثن، أن ما يبدو دليلا قاطعا على الورق كثيرا مالا يكون نفس الشيء في المحكمة.

لا تستطيع أن تفرض أنني سأقول إنني مذنب سأدافع عن نفسي بكل ما يمكن أن يعطيه لي سلطان العقل والمال. إنك شاب مجتهد، لكنك لست ألمع جوهرة في عالم المحاماة.

ـ ذلك أيضا صحيح. قد تظهر بعض أدلتي ضعيفة في المحاكمة. ومن الممكن ألا تثبت إدانتك. لكنك نسيت شيئا واحدا. فمن اليوم الذي تترك فيه المحكمة ستكون رجلاً مشبوها. وستراقبك شرطة كل أوروبا. لقد كنت ناجحا للغاية في الماضي، ولماذا؟ لأنك كنت فوق الشبهات، سيدا راقيا محترما، متميزا ينتمي لأفضل المنتديات له أصدقاء بين زهرة مجتمعنا. والآن ستكون موضع شك، رجلا له ماضي، مركز لقصص غريبة. إلى أي مدى احتمال نجاحك تحت هذه الظروف؟

فضحك، وقال:

ـ إنك رائع في رسم الشخصيات، يا صديقي وما الذي يجعلك تفكر إنني أستطيع العمل فقط إذا عشت في ضوء الشهرة فقط؟

ـ إنك تقول أنني رائع في رسم الشخصيات. وأعتقد أنني صائب في الحكم عليك كفنان في الجريمة. إنك لست المجرم العادي الذي يعمل من وازع الكراهية أو الجشع. لا، أعتقد أنك أبرع من ذلك. إنك تحب القوة، القوة الخفية. إنك تشعر بالرضاء

في احتقار الرجال العاديين وجعلهم أدواتك. إنك تضحك على أنواع المعلومات المختلفة التي يسميها الناس المعرفة، لذلك تستخدم تكاملك ضدها. ولسوء الحظ أن حياة الملايين مبنية على هذه المعلومات، لذلك فأنت عدو للمجتمع. لكن يبدو لي أنك لن تنعم بالرضا بمهاجمتك الحضارة من أسفل، يجب أن تكون فيها. ومساهما فيها. يمكنني أن أتخيلك تتحرك في عالمنا ضاحكا في سرك وأنت تمتدحها، وراكلا لمساعدتنا بقدمك بعيدا. ويمكنني فهم متعة كل هذا لك. فلن انتهى كل شيء الآن.

فكرر قائلا:

- انتهى؟

فاستمريت قائلا:

- انتهى. لقد جاءت النهاية... النهاية الحتمية والتامة.

وقام بحركة مفاجئة .. إنه لا يمكن أن يكون الخوف، لابد أنه الحنق.

فصرخ قائلا:

- وماذا عنك ؟ هل تعتقد أنك تستطيع المحاربة ضدي دون أن ينالك العقاب الذي تستحقه؟

وكان ممسكا جرساً في يده وقام برنّه. كان الباب من خلفي، وكان ينظر خلفي في اتجاهه. وأصبحت تحت رحمته كلية، لكني لم أتحرك قيد أنملة. ولا أعرف كيف تحكمت في هدوئي، لكني نجحت، وبدوني عناء كبير. وواصلت الحديث، مدركا أن الباب قد فتح وأن هناك شخصا ما خلفي.

ـ لا فائدة في الحقيقة من محاولتك لإخافتي. فأنا آمن، لأني أتعامل مع رجل عقل وذكاء، وليس المجرم الغبي العادي. إنك لا تريد حياتي في انتقام أحمق. إذا أنت قتلتني أو رجلك الذي من ورائي، فما النفع الذي سيعود عليك؟

كان ينظر خلفي، وماتت الحنق المباغت من على وجهه.

فقال:

ـ جيمس، غلطة. يمكنك أن تذهب.

وأغلق الباب برفق من خلفي.

ـ نعم، غلطة. إعجابي بك عظيم، يا مستر لوملي، وكنت سأشعر بالأسف إذا خاب ظني.

فضحك مثل أي رجل عادي، وقال:

ـ أنا سعيد أن يناقش هذا العمل باحترام من كلا الجانبين.

والآن، ماذا لديك من قول؟

ـ وعدت أن أتعامل معك بصراحة. حسن، دعني أضع أوراقي الأخيرة على المائدة. وفي التاسعة والنصف تماما الليلة سيكون لدى سكتلنديارد نسخة من تلك الأقوال التي سرقتها صباح اليوم. وقد أضيف أن السلطات هناك تعرفني، وتعمل حسب نصيحتي. وعندما يقرأون الورقة سوف يتصرفون على هداها. لذلك، فلديك ما يزيد بقليل عن ساعة ونصف تحدد فيها قرارك. يمكنك أن تظل حرا طليقا.. لكن ليس في إنجلترا.

فنهض على قدميه وأخذ يذهب ويغدو.

وقال:

ـ هل تسمح أن تخبرني بشيء واحد؟ إذ أنت تعتقد، كما تقول، أني مجرم خطير، كيف يسمح لك ضميرك أن تقدم لي فرصة الهرب هذه؟ فمن واجبك أن تقدمني للعدالة.

قلت:

ـ سأقول لك لماذا، إنه، باختصار.. بت ـ هيرون.

فأنا لا أدري إلى أي مدى تورط في شئونك، لكنني أعرف بعضا من ضعفه، ولا أريد أن تتحطم حياته ويتحطم قلب زوجته.

لقد تعلم درسه ، ولن يتذكرك أو يذكر خططك لأى أحد، وفي الحقيقة، وبقدر استطاعتي، فهو لن يعرف أبداً بأن أى أحد يشاركه سره. وثمن فرصة الهرب التى أقدمها لك هى أن ماضى بت - هيرون يدفن إلى الأبد.

ولم يجب. ولقد عقد ذاعيه وما زال يذهب ويغدو في الحجرة. وبدا عليه فجأة الهرم بشكل كبير، وكان لدى شعور بأنى أتعامل مع رجل طاعنا في السن.

وقال أخيرا:

- مستر ليدن، إن لديك شجاعة، كما أنك شريف وصريح. أعتقد أنك ضائع في مهنتك الغبية، رغم أنى أتوقع إنك ستظل فيها. إن طلبك الصادق هو ما تسميه جريمة. يظهر أن كلانا له نقاط ضعفه في قضايانا. نقطة ضعفي، كما تقول، أنى أستطيع العمل فقط في النور، ونقطة ضعفك أن لك صديق.. وقد يكون ذلك صحيح نسبيا. إنك تقدم خطة تنقذ ضعف كلانا. لكن على فكرة، ما هى؟

فنظرت في ساعتى مرة أخرى، وقلت:

- لديك وفرة في الوقت للحاق بقطار الليل إلى باريس.

- وإذا لم يحدث؟

- إذن، مع الأسف، ستوجد مشكلة مع الشرطة ما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة.

- التي، من أجلنا جميعا، ستكون مدعاة للرثاء... هل تعرف أنك تكبر انتباهي بشكل كبير؟ أستطيع أن أتعامل مع الرجل الذكي، لأنه عادة ما يكون رجلا واسع الخيال أيضا. نعم، بت - هيرون كان من ذلك النوع. أما بالنسبة للعقول العادية فهي لا تزعجني. أنا أحبرها. لكنك رجل.. دعنا نقول، ليس لك قدرات عظيمة للتفكير، لكن لديك خيال أيضا. وهي تركيبة غير عادية، وذلك هو السبب في أنك نجحت.

فقلت:

- إنى أحذرك، إنك تضيع وقتاً ثميناً

فضحك بابتهاج تام، وقال:

- أعتقد أنك قلق فعلا على مصلحتي، لا، أنا لا أحاول أن أستميلك بالانضمام لجانب قضيتي، رغم أنني كنت أستطيع عمل ذلك، وأنا على يقين من ذلك، إذ كنت قد قابلتك في وقت مبكر من حياتك.

• • •

قلت :

ـ أنا أكرهك وأكره كل أعمالك، لكنى أعجب بشجاعتك فهز رأسه برفق، وقال:

ـ هذه كلمة خاطئة. فأنا لست شجاعا. أن تكون شجاعاً معناها أنك قد هزمت الخوف، لكنى لم يكن لدى فى يوم ما خوفا لأهزمه. صدقنى، مصدر ليان، فالتهديد لا يعنى شيئا لى. لقد أعطيتنى شيئين لأختار بينهما، وكلاهما معناه الفشل. لكن كيف تعرف أننى أعتبرهما فشلا؟ فلا يوجد إنسان منذ نابليون قد ذاق مثل هذه القوة مثلى أنا. لكن العمر يزحف، وقد تكون القوة مصدر متاعب، وقد أكون راغبا فى إنهائها. لأنى مع ذلك قد أعتز بك لأنك قدمت لى خدمة عظيمة.

كان يحاول أن ينتزع كل شعور بالانتصار من انتصارى، لكن كلامه كان لا إنسانى لدرجة أنى كرهته.

وقلت:

ـ إنك لا تخاف شيئاً ولا تؤمن بشيء، كان يجب ألا يُسمح لك بالحياة. واسمح لى لآخر مرة أن أذكرك بأن الوقت يمر.

فقال، مبتسما:

ـ صحيح، فالقطارات لا تنتظر. لكن قد تكون هناك طرق



٦ ـ أنا أكرهك وأكره كل أعمالك

أخرى أسرع.. ربما سيكون من الأكثر حكمة أن تتركني الآن، مستر ليان. سواء اتبعت نصيحتك أم لا، فسيكون هناك الكثير لعمله..

وقادني إلى الباب وكأنه يوصل ضيفا عاديات للخارج. وصافحني وعلق على جمال الطقس.

وكان هذا آخر ما رأيت من ذلك الرجل المذهل. وكانت راحة عظيمة أن أجد نفسي في بيكاديللي في خضم الزحام بين البشر العاديين. لقد تصرفت ببسالة كافية في الساعة الأخيرة، لكني لن أخوض ذلك ثانية مقابل ملايين الجنيهات. فالتعامل مع رجل يبدو أن يكون كله ذكاء وليس لديه أي شيء إنساني كان مثل أن تكون في صحبة ثعبان.

وانطلقت بسيارتي إلى النادي واتصلت بماكجليفراي، طالبا منه أن يؤجل النظر في أقوالي حتى الصباح. ثم ذهبت إلى المستشفى لأرى تشايمان.

كان زعيم الشعب الشتيم هذا في حالة عصبية سيئة للغاية، وقصة ما قمت به اليوم لم تهدئه. ولقد بدت المعركة التي في المطعم بالنسبة له سليمة تماما، لكن أن يسلب عضو من أعضاء البرلمان في وضح النهار وبالقرب من مجلس العموم، جعل دمه

يغلي. ولم يعد لديه أية ثقة في الأمن العام. أما بالنسبة لإصابته فالأمر لا يهم، ووعد الطبيب أن يسمح له بالخروج في اليوم التالي. وكان عقله هو الذي عاني، وأخذ مني كل قدرتي على الإقناع لأجعله يحتفظ بهدوئه.

وكان يريد محاكمة عامة للوملي، وقبض عام على كل الوكلاء السريين المشتبه فيهم، وينتهي كل شيء بخطبة عصماء يلقيها هو في البرلمان، وأنصت لرجالني في سكوتة بشفتين مغلقتين بحزم، لكنه أدرك أخيرا سبب رجالني، وفي النهاية وعد أن يمسك لسانه من أجل خاطر صديقه تومي ديلورين. وكنت أعرف أن سر بت ـ هيرون سيكون معه في الحفظ والصون.

وأثناء عبوري لجسر وستمنستر في طريق عودتي للبيت، أرعد القطار السريع لفرنسا فوق النهر، وتساءلت إذا كان لوملي في القطار، أم أنه قد سلك أحد الطرق الأخرى التي قد تكلم عنها...

* * *

فصل (٩)

عودة الضالين

لا أعتقد أنني اندهشت للأخبار التي قرأتها في صحيفة التايمز في الصباح التالي.

لقد توفي مستر أندرو لوملي فجأة في الليل بالسكتة القلبية، واكتشفت الصحف فجأة أن رجلاً عظيماً قد اختفى. وكان هناك قدر كبير من الأقوال عنه وكانت مثيرة للاهتمام. لقد كان أكبر مما توقعت .. تاهز السبعين.. وتحدثت صحيفة التايمز عنه كرجل كان يمكنه أن يفعل أي شيء يحلو له في الحياة العامة، لكنه قد اختار أن يعطي دائرة صغيرة من الأصدقاء ما يعطيه رجل آخر للبلد. وقرأت عن حكمته، وجاذبيته، وفنه، ومعرفته الواسعة. وكان أحد الأمثلة الرفيعة للرجل الثري واسع العلم

والثقافة، الذى لم يضيع ثروته هباءً، إنما استفاد بها بحكمة وبكرم.

والصحف الرخيصة قالت ما يقارب هذا، حتى صحيفة حزب العمال قالت إنه كان قدوة أفضل عن كثيرين من الأثرياء، لأنه كان صديقا حقيقيا للفقراء. ففكرت أن تشابمان سينفجر غيظا عندما يقرأ ذلك. إنه لم يشتر الصحيفة ثانية بعد ذلك، لكنه أصبح من قراء التايمز عوضا عنها.

لم يكن من شأنى أن أروى الحقيقة عن لوملى. فى الحقيقة لم أكن أقدر حتى لو أنى أردت ذلك، لأن لا أحد كان سيصدقنى بدون أدلة، والأدلة لن تظهر علنا.

وبعد ثلاثة أيام ذهبت للجنازة. وكانت مناسبة مدهشة. كان فيها عدد من الوزراء وكل أصناف عليه القوم المهمين. وبدا من الغريب جدا لى أن أكون فى تلك المناسبة الوقورة وأفكر فى الآلة السرية المهولة التى كان يتحكم فيها، والتى أصبحت الآن لا نفع لها، وكنت أتخيل ما تعنيه وفاته لعدد كبير من الناس الذين قد عملوا من أجله فى طاعة عمياء أنه كان نابليون الذى لم يترك ضباطا بعده.

حسن، إذكروا محاسن موتاكم. عملى وقد أديته، ولم يبق إلا

إعادة بت ـ هيرون لوطنه.

أما الرجال الثلاثة في لندن علاوة على شخصي، الذين كانوا يعرفون القصة .. ماكجليفراى، تشابمان وفيلكس.. فالاثنين الأخيرين يمكن الوثوق في صمتهما، وسكتلانديارد ليس من عادتها إشاعة معلوماتها على الملأ. وتومي، طبعا، يجب أن يحاط علما، فهذا من حقه، لكني أعرف أن تومي لا يمكن أن يتنفس كلمة واحدة منها. كنت أريد من تشارلز أن يؤمن بأن سره مات مع لوملي، وإلا فلا أعتقد أنه سيعود إلى انجلترا.

أخذ الأمر بعض الترتيب، لأننا لم نستطع أن نقول له مباشرة عن موت لوملي بدون إفصاح الطريق لحقيقة أننا كنا نعرف العلاقة بين الاثنين. وجعلت فيلكس يرسل الخبر إلى روسيا بطلب خاص أن يطبع في الصحف التي لا يستطيع تشارلز تجنب قراءتها.

وكانت الخطة ناجحة. وبزيارة لمنزله بعد بضعة أيام، لاحظت من ابتسامة ايثيل، وجهها سعيدا يوحي بأن مشاكلها قد انتهت. وفي نفس المساء وصلتني برقية من تومي تبلغني بعودة الضالين.

كنت مشغولا جداً ذلك الصيف في المحاكم وفي البرلمان،

وكان هذا متأخرا عن المعتاد، وبعد مشاكل شهر يونيو كنت أشعر بأني قد أنهكت. وفي يوم حار من شهر أغسطس قابلت نومي ثانية.

كانت الشمس تتخلل نوافذ مكتبي، مثل ما قد فعلت في اليوم الذي بدأ فيه. وحسب ما أذكر، نفس أوراق قضية إمدادات المياه بجنوب لندن ما زالت قابعة على مكتبي. وكنت أشعر بالحر والتعب عندما فتح نومي الباب وظهر أمامي داخل الغرفة طويلا محمص اللون من الشمس. وسأل بعد أن تصافحنا:

ـ ما زلت في نفس اللعبة القديمة؟ أنا لا أستطيع فهم أناس مثلك يحتفظون بنفس العمل القديم إلى الأبد.

فأجبت:

ـ نفس الحياة الخالية من الأحداث، لا شيء يتغير سوى مجيء مزيد من المال. ولا شيء سيحدث لي.. إلا إذا ازددت سمنة.

ـ ألاحظ ذلك بالفعل يا صديقي. أنك في حاجة إلى بعض المشي، وإلا ستصبح سقيما وتسقط عليلاً. بعض الإثارة ستفيدك كثيرا.

فسألت:

ـ وأنت؟ أهنئك على نجاحك. سمعت أنك أحدثت بث ـ هيرون سالما.

فازدادت عينا تومي الضاحكة وقاراً، وقال:

ـ لقد عشت أجمل أيام عمري. كانت مثل حكاية من ألف ليلة أو إحدى قصص المغامرات. أشعر كأنني عشت سنين منذ أن غادرت إنجلترا في مايو. بينما أنت جالس بين أوراقك المدرية، كنا نحن ننطلق بجيادنا فوق سطح الدنيا ونرى رجالا بمرتون. تعال وتناول العشاء معي الليلة. لا أستطيع أن أروي لك القصة كاملة، لأني لا أعرفها، لكن يوجد ما يكفي ليوقظك قليلا.

عندئذ كان لدي انتقامي الصغير. وكانت المرة الأولى والأخيرة التي استطعت أن أكسب نقطة ضد تومي ديلورين.

فقلت:

ـ لا، بل ستتعشى أنت معي، وسأروي لك القصة كاملة.

فكل أوراق الموضوع هناك في خزانتي.

الهرم ١٦ فبراير ٩٢

الفهـرس

رقم الإيداع ١٥٩٥٨ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977-01-8161- 7

مطابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب



لقـــد أدركنا منذ البداية أن تكوين ثقافة المجتمع تبدأ بتأصيل عـادة القـراءة، وحب المعرفـة، وأن المعـرفـة وسيلتها الأساسية هى الكتـاب، وأن الحق في القـراءة يماثل تمامـا الحق فى التعليم والحق فى الصحـة.. بل الحق فى الحياة نفسها.

سوزان مبارك

٢٠٠

قرش